

الكتاب: آداب النفوس
المؤلف: الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (المتوفى: 243هـ)
المحقق: عبد القادر أحمد عطا
الناشر: دار الجيل - بيروت - لبنان
عدد الأجزاء: 1
[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]

مُعَامَلَةُ اللَّهِ

دَلَائِلُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ

روى عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ
أَوْصِيكَ وَنَفْسِي وَمَنْ سَمِعَ كَلَامِي بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْعِبَادَ وَإِلَيْهِ الْمَعَادُ وَبِهِ السَّدَادُ وَالرَّشَادُ
فَاتَّقِهِ يَا أَخِي تَقْوَى مَنْ قَدْ عَرَفَ قَرَبَ اللَّهِ مِنْهُ وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِ
وَأَمِنْ بِهِ إِيْمَانٍ مَنْ قَدْ أَقْرَأَ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَةِ وَالْفَرْدَانِيَةِ وَالْأَزَلِيَّةِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْ مُشَاهَدَةِ مَلَكُوتِهِ وَشَوَاهِدِ
سُلْطَانِهِ وَكَثْرَةِ الدَّلَائِلِ عَلَيْهِ وَالْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى رَبُوبِيَّتِهِ وَنَفَازِ مَشِيئَتِهِ وَإِحْكَامِ صَنْعَتِهِ وَبَيَانِ قُدْرَتِهِ
عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
وَتَقِ بِهِ يَا أَخِي ثِقَةً مَنْ قَدْ حَسَنَ ظَنَّهُ بِهِ وَقَلَّتْ تَهْمَتُهُ لَهُ وَصَدَقَ بَوَعْدِهِ وَوُثِقَ بِضِمَامِهِ وَسَكَنَ قَلْبُهُ عَنْ
الِاضْطِرَابِ إِلَى وَعْدِهِ وَعَظَمَ وَعِيدِهِ فِي قَلْبِهِ

(1/35)

وَأَشْكُرُهُ يَا أَخِي شُكْرَ مَنْ قَدْ عَرَفَ فَضْلَهُ وَكَثُرَتْ أَيْدِيهِ عِنْدَهُ وَبَرَهُ بِهِ
وَتَعَرَّفَ نِعْمَةَ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الْخَاصَّةِ مِنْهَا وَالْعَامَّةِ وَاخْلَصَ لَهُ إِخْلَاصَ مَنْ قَدْ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ لَهُ
عَمَلًا إِلَّا بَعْدَ تَخْلِيصِهِ مِنَ الْآفَاتِ وَإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا يُشْرِكُ فِي عَمَلِهِ أَحَدًا سِوَاهُ
وَأَعْلَمُ يَا أَخِي أَنَّ إِشْرَاقَ الْمَخْلُوقِينَ فِي الْعَمَلِ أَنْ يَتَزَيَّنَ هُمُ الْعَبْدُ فِي مَوَاطِنِ الْامْتِحَانِ فَيَكْذِبُ فِي عَمَلِهِ
أَوْ يَرَائِي لِيَكْرَمَ وَيَعْظُمَ لَجَمِيلِ قَوْلِهِ وَمَحَاسِنِ مَا يَظْهَرُ مِنْ عَمَلِهِ وَهُوَ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ يَجْهَلُهُ
مِنْهَا
وَلَا يَسْلَمُ يَا أَخِي مِنْ شَرِّهِ إِلَّا مَنْ هَرَبَ مِنْ مَوَاطِنِهِ وَعَمِلَ وَهُوَ لَا يَجِبُ أَنْ يَطْلُعَ لَهُ مَخْلُوقٌ عَلَى عَمَلٍ
وَإِنْ أَطْلَعَ لَهُ مَخْلُوقٌ عَلَى عَمَلٍ وَهُوَ لَا يَجِبُ إِطْلَاعُهُ فَمِنْ صَدَقَهُ أَلَا يَجِبُ أَنْ يَحْمَدَهُ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ
عَلَى مَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ مِنْ عَمَلِهِ وَإِنْ حَمَدَهُ أَحَدٌ وَهُوَ لَا يَجِبُ حَمْدُهُ فَلَا يَسِرْ بِحَمْدِهِ لَهُ عَلَى عَمَلِهِ فَإِنْ

سرهِ فَلَا يَسِرْنَ لِمَعْنَى الدُّنْيَا بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ
ثُمَّ أَصْدَقَ يَا أَخِي فِي قَوْلِكَ وَفَعَلْتَ صَدَقَ مِنْ قَدْ عَرَفَ أَنَّ اللَّهَ مُطْلِعٌ عَلَى دَخِيلَةِ أَمْرِهِ وَسِرِّهِ وَعِلَانِيَتِهِ
وَمَا طَوَى عَلَيْهِ ضَمِيرَهُ
وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ يَا أَخِي تَوَكَّلَ مِنْ قَدْ وَثِقَ بِوَعْدِهِ وَاطْمَأَنَّ إِلَى ضَمَانِهِ

(1/36)

ثِقَّةٌ مِنْهُ بِوَفَائِهِ وَرِضَا مِنْهُ بِقَضَائِهِ وَاسْتِسْلَامًا مِنْهُ لِأَمْرِهِ وَإِيمَانًا بِقُدْرِهِ وَيَقِينًا صَادِقًا مِنْهُ بِجَنَّتِهِ وَنَارِهِ
وَخَفَهُ يَا أَخِي خَوْفٌ مِنْ قَدْ عَرَفَ سَطَوْتَهُ وَشِدَّةَ نَقْمَتِهِ وَأَلِيمَ عَذَابِهِ وَمِثْلَتَهُ وَآثَارَهُ وَوَقَائِعَهُ لِمَنْ خَالَفَ
أَمْرَهُ وَعَصَاهُ
وَتَعَرَّفَ يَا أَخِي أَنَّهُ لَا تَمْسُكَ لِأَحَدٍ خَذْلُهُ وَلَا صَنِيعَةٌ عَلَى أَحَدٍ وَفَقَهُ وَسَدَدَهُ وَحَاطَهُ وَحَفَظَهُ وَأَنَّهُ لَا
صَبْرَ لِأَحَدٍ عَلَى عُقُوبَتِهِ وَنِكَالِهِ وَتَغْيِيرِ نَعْمِهِ
وَارْجِهَ يَا أَخِي رَجَاءً مِنْ قَدْ صَدَقَ بِوَعْدِهِ وَعَايِنَ ثَوَابَهُ
وَاشْكِرْهُ يَا أَخِي شُكْرَ مَنْ قَدْ قَبِلَ مِنْهُ مُحَاسِنَهُ وَاصْلَحَ عَمَلَهُ وَحَبَاهُ مِنْ مَزِيدِ أَيَادِيهِ وَأَنَالَهُ مِنْ مَزِيدِ
كَرَامَاتِهِ مَا لَمْ يَسْتَأْهِلْهُ بِعَمَلِهِ
وَاسْتَحْبِهِ يَا أَخِي حَيَاءً مِنْ قَدْ تَعَرَّفَ كَثْرَةَ تَفَضُّلِهِ وَجَزِيلَ مَوَاهِبِهِ وَعَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ التَّقْصِيرَ فِي شُكْرِهِ
وَقَلَّةَ الْوَفَاءِ مِنْهُ بَعْدَهُ وَالْعَجْزَ عَنِ الْقِيَامِ بِأَدَاءِ مَا لَزَمَهُ مِنْ حَقِّهِ ثُمَّ لَا يَتَعَرَّفُ مِنْ خَالِقِهِ إِلَّا جَمِيلَ سِتْرِهِ
وَعَظِيمَ الْعَافِيَةِ وَتَتَابَعَ النِّعَمِ وَدَوَامَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَعَظِيمَ الْحِلْمِ وَالصَّفْحِ عَنْهُ

(1/37)

ثُمَّ أَعْلَمَ يَا أَخِي أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ قَدْ افْتَرَضَ فَرَائِضَ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَشَرَعَ لَكَ شَرَائِعَ ذَلِكَ عَلَيْهِا
وَأَمَرَكَ بِهَا وَوَعَدَكَ عَلَى حَسَنِ أَدَائِهَا جَزِيلَ الثَّوَابِ وَأَوْعَدَكَ عَلَى تَضْيِيعِهَا أَلِيمَ الْعِقَابِ رَحْمَةً لَكَ
وَحَذْرَكَ نَفْسَهُ شَفَقَةً مِنْهُ عَلَيْكَ
فَقُمْ يَا أَخِي بِفَرَائِضِهِ وَالزَّمْ شَرَائِعَهُ وَوَافَقْ سُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّبِعْ آثَارَ أَصْحَابِ نَبِيِّهِ وَالزَّمْ
سَبِيلَهُمْ وَتَأَدَّبْ بِأَدَابِهِمْ وَاسْلُكْ طَرِيقَهُمْ وَاهْتَدِ بِهَدَاهُمْ وَتَوَسَّلْ إِلَى اللَّهِ بِحُبِّهِمْ وَحُبِّ مَنْ أَحْبَبَهُمْ فَهُمْ
الَّذِينَ أَنَابُوا إِلَيْهِ وَقَصَدُوا قَصْدَهُ وَاخْتَارَهُمْ لَصَحْبَةِ نَبِيِّهِ فَجَعَلَهُمْ لَهُ أَحِبَّاءًا وَأَخْدَانًا
حَقِيقَةَ التَّوَسُّلِ بِحُبِّ الصَّالِحِينَ

وَأَعْلَمَ يَا أَخِي أَنَّ عِلَامَةَ حُبِّكَ إِيَّاهُمْ لَزُومُكَ مُحِبَّتِهِمْ مَعَ اسْتِقَامَةِ قَلْبِكَ وَصِحَّةِ عَمَلِكَ وَصَدَقَ
لِسَانُكَ وَحَسَنَ سِرِّيَّتِكَ لِأَمْرِ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ كَمَا كَانَ الْقَوْمُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ فَهَذَا يُحَقِّقُ مِنْكَ
صَدَقَ دَعْوَاكَ لِحُبِّهِمْ وَالتَّمَسُّكَ بِسُنَّتِهِمْ

فَإِذَا صَحَّتْ فِيكَ وَمِنْكَ هَذِهِ الْخِلَالُ كَصَحَّتْهَا مِنْهُمْ وَفِيهِمْ كُنْتَ صَادِقًا فِي حُبِّ الْقَوْمِ وَحَسَنِ
الِاتِّبَاعِ لَهُمْ

(1/38)

وَإِنْ كُنْتَ مُدْعِيًا لَهُمْ وَأَنْتَ مُخَالَفٌ لِأَفَاعِيلِهِمْ عَادِلٌ عَنْ سَبِيلِ الْإِسْتِقَامَةِ لَطَرِيقِ الْحُجَّةِ الَّتِي كَانُوا
عَلَيْهَا فَأَنْتَ مَائِلٌ إِلَى مُوَافَقَةِ هَوَاكَ عَادِلٌ عَنْ مَسِيرَتِهِمْ وَلَسْتَ بِصَادِقٍ فِي دَعْوَاكَ
فَلَا تَجْمَعَنَّ عَلَى نَفْسِكَ الْخِلَافَ لِمَحَجَّتِهِمْ وَالِدَّعْوَى أَنَّكَ عَلَى سَبِيلِهِمْ فَمَتَى فَعَلْتَ ذَلِكَ صَحَّ مِنْكَ
جَهْلٌ وَكَذِبٌ وَتَعَرَّضْتَ لِلْمَقْتِ مِنَ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ
وَلَكِنْ إِقْرَارًا وَاسْتِغْفَارًا فَذَلِكَ أَوَّلَى بِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ
وَلَيْكُنْ لَكَ يَا أَخِي فِي الْحَقِّ نَصِيبٌ فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ لِبَنَاتَيْنِ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ الْمَقْرُ فِيهِ بِالْحَقِّ نَاجِيَا

(1/39)

سِيَّاسَةُ النَّفْسِ
فَإِذَا أَنْتَ عَرَفْتَ الْحَقَّ فَأَقْرَرْتَ بِهِ وَدَلَّكَ الْحَقُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَيْكَ مَعَ الْفَرَائِضِ الظَّاهِرَةِ فَرَضًا بَاطِنًا هُوَ
تَصْحِيحُ السَّرَائِرِ وَاسْتِقَامَةُ الْإِرَادَةِ وَصَدَقَ النَّبِيُّ وَمِفْتَاحُ الْهَمَةِ وَنَقَاءُ الضَّمِيرِ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُ اللَّهُ
وَعَقْدُ النَّدَمِ عَلَى جَمِيعِ مَا مَضَى مِنَ التَّوَاتُبِ بِالْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ عَلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ
وَهَذَا أَمْرٌ جَعَلَهُ اللَّهُ مَهِيمًا عَلَى أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ فَمَا كَانَ مِنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ مِنْ عَمَلٍ ظَاهِرٍ قَبُولُ بِهِ مِنَ
الْبَاطِنِ فَمَا صَحَّ وَوَافَقَ بَاطِنُهُ صَلَاحٌ وَقَبُلَ ظَاهِرُهُ وَمَا خَالَفَ وَفَسَدَ بَاطِنُهُ رَدَّتْ عَلَيْهِ أَعْمَالُ ظَاهِرِهِ
وَإِنْ كَثُرَتْ وَخَسِرَ ظَاهِرُهَا لِفَسَادِ بَاطِنِهَا
وَيَحَقُّ ذَلِكَ كُلُّهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى {وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا
يَقْتَرِفُونَ}
وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((إِنَّمَا الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى))

(1/40)

وَقَوْلُهُ فِي ابْنِ آدَمَ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ سَائِرُ جَسَدِهِ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ جَسَدِهِ يُرِيدُ عَمَلَهُ
الْأَوْهَى الْقَلْبَ
وَقَوْلُهُ إِنَّ الْمَلِكَ لَيَكْثُرُ أَعْمَالُ الْعَبْدِ بَعْدَ وَفَاتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ عَبْدُكَ لَمْ أَزَلْ مَعَهُ حَتَّى تَوْفَيْتَهُ ثُمَّ
يَذْكُرُ مُحَاسِنَ عَمَلِهِ فَيَكْثُرُهَا وَيُطَيِّبُهَا وَيَحْسِنُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْتَ كُنْتَ حَفِيزًا عَلَى عَمَلِ
عَبْدِي وَأَنَا كُنْتُ رَقِيبًا عَلَى قَلْبِهِ وَإِنْ عَمَلُهُ الَّذِي كَثُرَتْهُ وَطِيبَتْهُ لَمْ يَكُنْ لِي خَالِصًا وَلَسْتُ أَقْبَلُ مِنْ

عَبْدِي إِلَّا مَا كَانَ لِي خَالِصًا
 فاعرف يا أخي نفسك وتفقد أحوالها وابحث عن عقد ضميرها بعناية منك وشفقة منك عليها مخافة
 تلفها فليس لك نفس غيرها فإن هلكت فهي الطامة الكبرى والداية العظمى
 فأحد النظر إليها يا أخي بعين نافذة البصر حديدة النظر حتى تعرف آفات عملها وفساد ضميرها
 وتعرف ما يتحرك به لسانها ثم خذ بعنان هواها فاكبحها بحكمة الخوف وصدق الخلاف عليها وردّها
 بجمل الرفق الى مراجعة الإخلاص في عملها وتصحيح الإرادة في ضميرها وصدق المنطق في لفظها
 واستقامة النية في قلبها وغض البصر عما كره مؤلّاها مع ترك فضول النظر الى ما قد أبيع النظر إليه
 ممّا يجلب على القلب اعتقاد حب الدنيا
 وخذها بالصمم عن استماع شيء ممّا كره مؤلّاها من الهوى والحناء وفي تناولها وقبضها وبسطها وفي
 فرحها وحزنها

(1/41)

وخذها بتصحيح ما يصل الى بطنها من غذائها وما تستر به عورتها
 وخذها بجميع همها كلها
 وامنع فرجها عن جميع ما كره مؤلّاها
 وليكن مع ذلك منك تيقظ وإزالة للغفلات عن قلبك عند كل حركة تكون منك وسكون وعند
 الصمت والمنطق والمدخل والمخرج والمنشط والحُب والبغض والضحك والبكاء
 فتعاهدها يا أخي في ذلك كله فإن لها في كل نوع ذكرناه من ذلك كله سبب هواها وسبب لطاعتها
 وسبب لمعصيتها
 فإن غفلت ووافقت هواها وغفلت عن مفاتشة همها كان جميع ما ذكرت لك من ذلك كله معاصي
 منها وإن انت سقطت بالغفلة ثم رجعت بالتيقظ إلى خلاف هواها فكان معك الندم على غفلتك
 وسقطتك رجّع ذلك كله إحسانا وطاعات لك
 فتفقدوها يا أخي بالعناية المتحركة منك لها مخافة تلفها فإنك تقطع عن إبليس طريق المعاصي وتفتح
 على نفسك باب الخيرات وما التوفيق إلا بالله العلي العظيم

(1/42)

بَيْنَ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ
 خَطَرُ اللِّسَانِ

وخف يا أخي من لسانك اشد من خوفك من السبع الضاري القريب المتمكن من أخذك فإن قَتِيلَ
 السبع من اهل الايمان ثوابه الجنة وقتيل اللسان عُقُوبَتُهُ النَّارُ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ

فإياك يا أخي والغفلة عن اللسان فإنه سبع ضار وأول فريسته صاحبه
فأغلق باب الكلام من نفسك بغلق وثيق ثم لا تفتحه إلا فيما لا بد لك منه فإذا فتحت فاحذر وخذ
من الكلام حاجتك التي لا بد لك منها وأغلق الباب
وإياك والغفلة عن ذلك والتمادي في الحديث وأن يستمد بك الكلام فتهلك نفسك فإنه يروى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد
السننهم
وسأله رجل فقال ما أتقي فقال هذا يعني لسانه

(1/43)

وقال له رجل ما أخوف ما تخاف علي فقال هذا وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه
وقال له آخر ما النجاة فقال امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك
وقال صلى الله عليه وسلم من صمت نجا
وقال من سره ان يسلم فليلزم الصمت
وورد عمر بن الخطاب على ابي بكر رضي الله عنهما وهو آخذ بطرف لسانه يبصبه فقال ما تصنع
فقال هذا أوردني الموارِد
وقال عبد الله بن مسعود ليس شيء أحق بطول سجن من لسان
الى أخبار كثيرة في اللسان
فإياك يا أخي والغفلة عنه فإنه اعظم جوارحك عليك جناية وأكثر ما تجد في صحيفة أعمالك يوم
القيامة من الشر ما املاه عليك لسانك وأكثر ما

(1/44)

تجده في صحيفتك من الخير ما اكتسبه قلبك
فضل عمل القلب على عمل اللسان

وذلك ان اكتساب قلوب الحكماء واهل البصائر للخير اعمال خفية تخفى على إبليس وعلى الحفظة
فهي اعمال نقية من الفساد زكية قد حصلت مع خفة مؤنة على أهلها جزيلة الثواب مخلصات من
عوارض العدو ومن هوى النفس
وذلك لأنها أعمال مستورة عن أعين العباد خاملة لأن العبد يصل إليها قائما وقاعدا ومضطجعا
فأولئك هم أولو الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم وأكثر ذكرهم التفكير قال

تَعَالَى {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}
فهم اهل الإحمال من الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا اللَّهَ عِبَادَةً لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُمْ

(1/45)

سياسة القلب
تصفية القلب عَنِ الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا

وتعاهد يا أخي قَلْبَكَ بِأَسْبَابِ الْآخِرَةِ وَعَرْضِهِ لِدَلِّكَ وَصْنِهِ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا وَمَنْ ذَكَرَ يَجْرُ إِلَى
الْحِرْصِ وَالرَّغْبَةِ
وَلَا تَأْذُنْ لِقَلْبِكَ فِي اسْتِصْحَابِ مَا يَعْسُرُ طَلِبُهُ وَيَنْطَفِئُ نُورُ الْقَلْبِ مِنْ أَجَلِهِ وَكَانَ فِي تَأْلِيفِ مَا بَيْنَهُ
وَبَيْنَ مَحْمُودِ الْعَوَاقِبِ حَرِيصًا وَخَوْفِ نَفْسِكَ عُقُوبَةَ مَا فِي يَدَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَقَلَّةِ آدَائِكَ لِمَا يَجِبُ عَلَيْكَ
فِيهِ مِنَ الشُّكْرِ
وَاسْتَكْثَرَ مَا فِي يَدَيْكَ لِمَا تَعْلَمُ مِنْ ضَعْفِ شُكْرِكَ فَتَشْتَغِلَ النَّفْسُ بِمَا فِي يَدَيْهَا عَنِ الْفِكْرِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا
وَالْحُبَّةِ لِلزِّيَادَةِ مِنْهَا
فَإِذَا أَجْمَعْتَهَا مِنْ ذِكْرِ الزِّيَادَةِ مِنَ الدُّنْيَا وَحَمَلْتَهَا عَلَى دَرَجَةِ الْخَوْفِ

(1/46)

مِمَّا فِي يَدَيْهَا قَنَعَتْ وَرَضِيَتْ وَعَفَتْ عَنِ طَلْبِ الدُّنْيَا بِالْحِرْصِ وَالرَّغْبَةِ وَرَجَعَتْ إِلَى الْآخِرَةِ بِالْحِرْصِ
عَلَيْهَا وَالرَّغْبَةِ فِيهَا فَإِنَّ النَّفْسَ مَبْنِيَّةً عَلَى أَسَاسِ الطَّمَعِ
أَخْطَارِ الطَّمَعِ عَلَى الْقَلْبِ

وَمُخْرِجِ الْحِرْصِ وَالرَّغْبَةِ مِنَ الطَّمَعِ وَبِنَاءِ الْإِنْفِسِ قَائِمٍ عَلَى قَوَاعِدِ الطَّمَعِ أَمَا الطَّمَعُ فِي الدُّنْيَا
فَيَسْتَعْمَلُ أَدَاةَ الطَّمَعِ فِي طَلْبِ الزِّيَادَةِ مِنَ الدُّنْيَا أَمَا الطَّمَعُ فِي الْآخِرَةِ فَيَسْتَعْمَلُ أَدَاةَ الطَّمَعِ فِي طَلْبِ
الزِّيَادَةِ مِنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ بِالْحِرْصِ عَلَيْهَا وَالرَّغْبَةِ فِيهَا
قِيلَ لِحَكِيمٍ فَمَا آلَهُ الطَّمَعُ وَجَمَاعَ آفَاتِهِ
قَالَ الشُّرَّةُ وَالْحِرْصُ وَهَيْجَانُ الرَّغْبَةِ فَعَلَى أَيِّهَا أَوْقَعَتِ النَّفْسُ طَمَعَهَا أَحْضَرَتْ أَدَاتَهَا وَجَمَعَتْ آلَتَهَا
وَجَدَتْ فِي طَلِبِهَا
فَإِذَا قَهَرَتْ صَاحِبَهَا عَلَى مُوَافَقَةِ هَوَاهَا اسْتَعْبَدَتْهُ فَأَذْهَلَتْهُ وَأَذَلَّتْهُ وَأَدْهَشَتْهُ وَأَتَعَبَتْهُ وَطَيَّشَتْ عَقْلَهُ
وَدَنَسَتْ عَرْضَهُ وَأَخْلَقَتْ مَرْوَعَتَهُ وَفَتَنَتْهُ عَنْ دِينِهِ وَإِنْ كَانَ عَالِمًا لَبِيبًا عَاقِلًا كَيْسًا فَطِينًا فَصِيحًا

حكيمًا فقيهاً لوثنه واسقطته وفضحته فأختمل لها ذلك كله وهو الأريب العالم الأديب فصيرته بعد العلم جاهلاً سفيهاً أحمق خفيفاً

(1/47)

وذلك أنّها سقته من موافقة هواها كأساً سما صرفاً فاستمالته فمال بعلمه وعقله وفهمه ونفاذ حكمته وبصره فاجراه مجرى هوى نفسه فعجلت له الفضيحة في عاجل الدنيا عند حكمائها وعقلائها وأسقطته من عين الله واعين عباده آمن أهل البصائر وأخرت له آجل الندامة الطويلة عند مفارقة الدنيا وفي عرصات القيامة قهر النفس على طلب الآخرة

فإذا قطع عنيها العبد الطمع من أسباب الدنيا وغلب بعقله هواها رجعت بطمعها إلى أسباب الآخرة لا محالة لأنّها بنيت على الطمع فإذا تجردت من أسباب الدنيا وأقلبت على نفسها بالإيأس من المخلوقين رجعت برغبتها وطمعها إلى أسباب الآخرة فجذبت في طلبها واجتهدت وعزفت عن الدنيا وباينت الهوى وخالفت العدو وتبعته العلم وكانت مطيّة للعقل صابرة على مر ما يدل عليه الحق فنجت وأنجت

(1/48)

الخوف والحزن
وسيلة تحصيل الخوف والحزن

وتعاهد يا أخي قلبك عند هممه وألزمه الفكرة في أمر المعاد فلا تفارق قلبك وتوهم بقلبك هول المطلاع عند مفارقة الدنيا وترك ما قد بذل أهلها فيه مهج نفوسهم وتدنيس أعراضهم وإخلاق مروءاتهم وانتقاص أديانهم ثم تركوا ذلك كله وقدموا على الله فرادى آحاد مع ما قد وردوا عليه من وخشة القبر وسؤال منكر ونكير وأهوال القيامة والوقوف بين يدي الله والمساءلة عن جميع ما كان منهم من قول أو فعل من مثل مثاقيل الدر وموازن الخردل وسؤاله عن الشباب فيم أبلى شبابه وعن العمر فيم أفنى عمره وعن المال من أين اكتسب وعمن منع وفيه انفق وعن العلم ماذا عمل فيه وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها والتي كذبوا فيها فإنك يا أخي إن شغلت قلبك بذلك وأسكنته إياه وكان فيك شيء

(1/49)

من صِحة تركيب العقل فَإِنَّهُ سِيَكِل مِنْكَ لِسَانُكَ وَلَا يَعْدَمُكَ الْخُوفُ اللَّازِمُ مَعَ الْحُزْنِ الدَّائِمِ وَالشَّغْلِ الْمُحِيطِ بِقَلْبِكَ
إِبْلِيسُ يَهْوَى الْقُلُوبَ الْخَرِبَةَ

وَإِنْ إِبْلِيسُ إِنَّمَا يَسُورُ عَلَيْكَ فِي الْآثَامِ مِنْ وَسْوَسةِ نَفْسِكَ وَخَرَابِ قَلْبِكَ
وَخَرَابِهِ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ فَارِعًا مِنَ الْخُوفِ اللَّازِمِ وَالْحُزْنِ الدَّائِمِ فَحِينَئِذٍ يَنْفُثُ فِيهِ بِالْوَسْوَسةِ لِأَمَالِ
الدُّنْيَا وَالْجَمْعِ لَهَا مَخَافَةَ فَقْرِهَا مَعَ لُزُومِ طَوْلِ الْأَمَلِ لِقَلْبِكَ وَإِعْرَاضِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَانْقِطَاعِ مَوَادِّ عَظَمَةِ
اللَّهِ مِنْهُ وَفِرَاقِهِ مِنَ الْهَيْبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْهُ
فَإِذَا وَجَدَ الْقَلْبَ عَامِرًا خَنَسَ وَنَفَرَ مِنْهُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مَسَاغًا وَلَا مِنْ جَوَانِبِهِ مَدْخَلًا لِأَنَّ الْقَلْبَ عَامِرٌ
بِالْخُوفِ وَالْأَحْزَانِ وَالْفِكْرِ فَهُوَ مُنِيرٌ مُضِيءٌ
يَرَى الْعَبْدُ بِنُورِ قَلْبِهِ مَدْخَلَ إِبْلِيسَ فَيَرْمِيهِ بِالْإِنْكَارِ لَمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ وَيَعْتَصِمُ بِمَا أَيْدَى اللَّهُ بِهِ مِنْ نُورِ قَلْبِهِ
فَيَدْحَرُهُ عَنْهُ فَوَلَّى الْحَبِيثُ إِلَى قَلْبٍ قَدْ فَقَدَ الْخُوفَ فَخَرِبَ وَأَظْلَمَ فَلَا نُورَ فِيهِ
فَلَا شَيْءَ أَثْقَلَ عَلَى الْحَبِيثِ مِنَ النُّورِ فَإِذَا وَجَدَهُ خَنَسَ وَنَفَرَ مِنْهُ

(1/50)

فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ قَبْلِ الْغَفْلَةِ مِنَ الْعَبْدِ
وَنُورِ الْقَلْبِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ يَتَعَطَّهِ وَحَيَاتِهِ فَإِذَا غَفَلَ مَاتَ وَأَظْلَمَ وَطَفِيَءَ نُورُهُ فَيَلْتَبِسُ عَلَى الْعَبْدِ مَا يَدْخُلُهُ
عَلَيْهِ الْعُدُوُّ أَوْ يَكْدُرُ عَلَيْهِ فَاخْتَلَسَ إِبْلِيسُ مِنَ الْعَبْدِ وَاسْتَدَامَ الْقَلْبَ بِالْغَفْلَةِ فَتَسُورُ عَلَيْهِ بِالْآثَامِ فَإِذَا
أَصْرَ عَلَى الْإِقَامَةِ عَلَيْهِ وَرَضِيَ بِهَا عَلَاهُ الرِّينَ فَاطْلَمَهُ وَاسْتَقَرَّ إِبْلِيسُ فِيهِ ثُمَّ سَلَكَ بِهِ سَبِيلَ الْآثَامِ إِلَى
أَنْ يُوَصِّلَهُ وَيُوقِعَهُ فِي الْكِبَائِرِ
وَلَا شَيْءَ اعْجَبَ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ ظِلْمَةِ الْقَلْبِ وَسَوَادِهِ وَانْطِفَاءِ نُورِهِ وَتَرَاكِبِ الرِّينِ عَلَيْهِ وَلَا شَيْءَ أَثْقَلَ
عَلَى الْحَبِيثِ مِنَ النُّورِ وَالْبَيَاضِ وَالنَّقَاءِ وَالصَّفَاءِ وَإِنَّمَا مَأْوَاهُ الظُّلْمَةُ وَالْإِلَّا فَلَا مَأْوَى لَهُ وَلَا قَرَارٌ فِي النُّورِ
وَالْبَيَاضِ
وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ الْمَظْلَمَ حَتَّى يَضَاءَ لَهُ فِيهِ بِمَصْبَاحٍ

(1/51)

مِرَاقِبَةُ اللَّهِ تَعَالَى
مَا يَعِينُ عَلَى الْمِرَاقِبَةِ

يُرْوَى عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ إِنْ مِنْ أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ وَأَفْضَلِهَا الْمِرَاقِبَةُ لِلَّهِ

وَمِنْ أَحْسَنِ الْمُرَاقَبَةِ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُرَاقِبًا بِالشُّكْرِ عَلَى النِّعَمِ وَالْإِعْتِرَافِ بِالْإِسَاءَةِ وَالتَّعَرُّضِ لِلْعَفْوِ عَنِ
الْإِسَاءَةِ فَيَكُونُ قَلْبُهُ لَازِمًا لِهَذَا الْمَقَامِ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ فَمَتَى مَا غَفَلَ رَدَهُ إِلَى هَذَا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَمِمَّا يَعِينُ عَلَى هَذَا تَرْكُ الذُّنُوبِ وَالتَّفَرُّغُ مِنَ الْأَشْغَالِ وَالْعِنَايَةُ بِالْمُرَاجَعَةِ
وَمِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ الَّتِي يَزْكُو بِهَا وَلَا يَسْتَعْنِي عَنْهَا إِلَّا خُلَاصُ وَالثِّقَةُ وَالشُّكْرُ وَالتَّوَاضُّعُ وَالِاسْتِسْلَامُ
وَالنَّصِيحَةُ وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ تَعَالَى وَالبَغْضُ فِيهِ
وَقَالَ أَقْلُ النَّصِيحِ الَّذِي يَجْرِكَ تَرْكُهُ وَلَا يَسْعَكَ إِلَّا الْعَمَلُ بِهِ فَمَتَى قَصُرَتْ عَنْهُ كُنْتَ مُصْرًا عَلَى
مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَرْكِ النَّصِيحَةِ لِعِبَادِهِ

(1/52)

فَأَقْلُ ذَلِكَ أَلَّا تَحِبَّ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَكْرَهُهُمُ مَا أَحَبَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
فَهَذِهِ الْحَالُ الَّتِي وَصَفْنَا وَاجِبُهُ عَلَى الْخَلْقِ لَا يَسْعَى تَرْكُهَا طَرَفَةً عَيْنٍ بِضَمِيرٍ وَلَا بِفِعْلِ جَوَارِحٍ
وَحَالُ أُخْرَى فَوْقَ هَذِهِ وَهِيَ فَضِيلَةُ الْعَبْدِ أَنْ يَكْرَهُهُمُ مَا كَرِهَ اللَّهُ وَأَنْ يَحِبَّ لَهُمْ مَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى
قَالَ وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ فَقَالَ لَهُ أَوْصِنِي فَقَالَ رَاقِبِ اللَّهَ فَقَالَ الرَّجُلُ وَمَا مُرَاقَبَةُ اللَّهِ
فَقَالَ أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنَ اللَّهِ
الْمُرَاقَبَةُ وَالْمُنَاجَاةُ مِنَ الْيَقِينِ

قَالَ فَاَلْمُنَاجَاةُ وَالْمُرَاقَبَةُ مِنْ حَيْثُ تَضَعُ قَلْبَكَ وَهُوَ أَنْ تَضَعَهُ دُونَ الْعَرْشِ فَتَنَاجِيَ مِنْ هُنَاكَ
وَفِي رَدِّ الْقَلْبِ إِلَى الْمُرَاقَبَةِ مُرَاجَعَتَانِ

(1/53)

أَوَّلَاهُمَا مُرَاقَبَةُ النَّظَرِ مَعَ تَذَكُّرِ الْعِلْمِ قَالَ تَعَالَى {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} وَقَالَ تَعَالَى {يَعْلَمُ مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}
ثُمَّ تَذَكُّرُ الْعِظَمَةِ لَوْجُودِ الْخَلَاوَةِ
وَالْقَوْلُ الْآخِرُ يَرَوِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَوْصَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا إِبْرَاهِيمُ تَذَرِي لَمْ أَخَذْتُكَ خَلِيلًا
قَالَ لَا يَا رَبِّ قَالَ لَطُولُ قِيَامِكَ بَيْنَ يَدَيَّ قَالَ فَقِيلَ إِنَّمَا كَانَ قِيَامُهُ بِالْقَلْبِ وَلَيْسَ بِالصَّلَاةِ
وَهَذَا يُوَافِقُ الْقُرْآنَ قَالَ تَعَالَى {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ}
وَقَوْلُ خَارِجَةٍ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا
مِنْ آدَابِ الْمُرَاقَبَةِ

وَقَالَ أَعْلَى الْأَعْمَالِ فِي الدَّرَجَاتِ إِنْ تَعْبَدَ اللَّهُ عَلَى السَّرُورِ بِمَوْلَاكَ ثُمَّ عَلَى التَّعْظِيمِ لَهُ ثُمَّ عَلَى الشُّكْرِ
ثُمَّ عَلَى الْخَوْفِ وَآخِرَ الْأَعْمَالِ الَّتِي

(1/54)

تَكُونُ بِالصَّبْرِ
وَالصَّبْرُ عَلَى وُجُوهِ تَصَبُّرٍ وَصَبْرٍ جَمِيلٍ ثُمَّ تَخْرُجُ إِلَى الْخَوْفِ وَالشُّكْرِ ثُمَّ إِلَى التَّعْظِيمِ ثُمَّ السَّرُورِ
وَمَنْ أَرَادَ الزَّهْدَ فَلْيَكُنْ الْكَثِيرُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ عِنْدَهُ قَلِيلًا وَلْيَكُنْ الْقَلِيلُ عِنْدَهُ مِنْ دُنْيَاهُ كَثِيرًا
وَلْيَكُنِ الْعَظِيمُ مِنْهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْأَذَى صَغِيرًا وَلْيَكُنِ الصَّغِيرُ مِنْهُ إِلَيْهِمْ عَظِيمًا
وَقَالَ إِذَا دَعَتِكَ نَفْسُكَ إِلَى مَا تَنْقُطِعُ بِهِ عِنْدَ حِظِّكَ فَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا حَكْمًا مِنَ الْحَيَاءِ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى
وَقَالَ إِنْ الْأَكْيَاسُ إِذَا دَعَتْهُمْ النَّفُوسُ إِلَى أَنْ تَقْطَعَهُمْ بِخَدَائِعِهَا عَنْ سَبِيلِ نَجَاتِهِمْ حَاكِمُوهَا إِلَى الْحَيَاءِ مِنَ
اللَّهِ تَعَالَى فَأَذَلَّهَا حَكَمُ الْحَيَاءِ
وَقَالَ مَخْرَجُ الْإِعْتِرَارِ مِنْ حَسَنِ ظَنِّ الْقَلْبِ وَمَخْرَجُ حَسَنِ ظَنِّ الْقَلْبِ مِنَ الْقِيَامِ لِلَّهِ عَلَى مَا يَكْرَهُ ثُمَّ مِنْ
كَذِبِ النَّفْسِ
وَقَالَ مِنَ النَّصِيحِ إِنْ تَحِبَّ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ كُلُّهُمْ خَيْرًا مِنْكَ

(1/55)

وَقَالَ ذَكَرَ عِنْدَ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَابِدٌ تَعَبَدَ بِأَلَا فقه فَقَالَ لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بَحْرًا
وَقَالَ مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى النَّاسِ وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى النَّاسِ
وَقَالَ كَرِّزْ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ مَا لَهُ وَلِكَلَامِ النَّاسِ
وَقَالَ إِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ قَلِيلٌ فَمَا عَلَى الْإِنْسَانِ لَوْ وَهَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ
وَقَالَ التَّوَّاضُعُ لِلَّهِ ذَلُّ الْقَلْبِ
وَقَالَ أَوَّلُ النِّعَمِ مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ الَّذِي بِهِ تُؤَدَّى فَرَائِضُ اللَّهِ ثُمَّ الصِّحَّةُ وَالْغِنَى ثُمَّ الْعَقْلُ
وَقَالَ لَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَرُدَّ عَلَى مَوْلَاهُ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِهِ وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِمَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ حُكْمِ مَوْلَاهُ
فَإِنْ لَمْ يَرْضَ فَلِلْعَبْدِ حَالَانِ حَالٌ يُوَافِقُ مِنْهُ رِضًا عَلَى مَا يَجِبُ وَحَالٌ يُوَافِقُ مِنْهُ صَبْرًا عَلَى مَا
يَكْرَهُ

(1/56)

العدل والفضل شرائع العدل وشرائع الفضل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَرَوَى عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ طَرِيقَ الْآخِرَةِ وَاحِدٌ وَالنَّاسُ فِيهِ صَنَفَانِ
فَصَنَفُ أَهْلِ الْعَدْلِ وَصَنَفُ أَهْلِ الْفَضْلِ
وَالْعَدْلُ عَدْلَانِ عَدْلٌ ظَاهِرٌ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ وَعَدْلٌ بَاطِنٌ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ
وَطَرِيقُ الْعَدْلِ طَرِيقُ الْإِسْتِقَامَةِ وَطَرِيقُ الْفَضْلِ طَرِيقُ طَلَبِ الزِّيَادَةِ
وَالَّذِي عَلَى النَّاسِ لُزُومُ الْعَمَلِ بِهِ طَرِيقُ الْإِسْتِقَامَةِ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ لُزُومُ طَرِيقِ الْفَضْلِ
وَالصَّبْرُ وَالْوَرَعُ مَعَ الْعَدْلِ وَهُمَا وَاجِبَانِ وَالزُّهْدُ وَالرِّضَى مَعَ الْفَضْلِ وَلَيْسَا بِوَاجِبَيْنِ وَالْإِنْصَافُ مَعَ
الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانُ مَعَ الْفَضْلِ
وَمَنْ شَغَلَهُ الْعَدْلُ عَنِ الْفَضْلِ فَمَعْدُورٌ وَمَنْ شَغَلَهُ الْفَضْلُ عَنِ الْعَدْلِ فَهُوَ

(1/57)

مَخْدُوعٌ مُتَّبِعٌ لَهْوَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَةُ الْعَدْلِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ الْفَضْلِ إِلَّا تَبَرَّعًا
وَهَكَذَا كُلُّ عَمَلٍ لَا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ فَعَلَهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ عِلْمُهُ
صِفَاتُ أَهْلِ الْعَدْلِ

وَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ إِلَّا بِثَلَاثِ خِصَالٍ بِالْعِلْمِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا لَهُ مِمَّا عَلَيْهِ وَبِالْفِعْلِ وَبِالصَّبْرِ
فَمِفْتَاحُ الْعَدْلِ وَأَوَّلَاهُ بِالْعَبْدِ وَأَوَّجِبُهُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ نَفْسِهِ فَلَا يَكُونُ لَهَا عِنْدَهُ قَدْرٌ فَوْقَ مَنْزِلَتِهَا
وَأَنْ الشَّبَهَ سَرِيرَتَهُ عَالَمِيَّتَهُ
وَأَحْزَمُ النَّاسِ فِيهِ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَا خَذَا الْمَرَاجِعَ لِنَفْسِهِ فِي كُلِّ خَطَرَةٍ تَهْوَاهَا نَفْسُهُ أَوْ تَكْرَهُهَا فَيَنْظُرُ فِي
ذَلِكَ أَنْ لَوْ اطَّلَعَ النَّاسُ عَلَى حَالَتِهِ هَذِهِ فَاسْتَحْيَا أَوْ كَرَهُهَا تَحَوَّلَ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَى حَالَةٍ لَا يَسْتَحْيَا
مِنْهَا فَإِنَّ الَّذِي لَا يَسْتَحْيَا مِنْهُ ضِدُّ الَّذِي يَسْتَحْيَا مِنْهُ
فَإِذَا تَحَوَّلَ وَاسْتَمَرَّ فَلْيَنْظُرْ فَإِنْ اشْتَهَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَطَّلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ تَحَوَّلَ مِنْهُ إِلَى مَا لَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ
فَإِنَّ الَّذِي تَشْتَهِيهِ ضِدُّهُ فَيَكُونُ أَبَدًا فِي

(1/58)

ضِدُّ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ
أَبْعَدُ النَّاسِ مِنَ الْعَدْلِ

وَأَبْعَدَ النَّاسَ مِنَ الْعَدْلِ أَشَدَّهُمْ غَفْلَةً عَنْ هَذَا وَاقْلَهُمْ مُحَاسِبَةً لِنَفْسِهِ وَأَبْعَدَ النَّاسَ مِنَ الْعَدْلِ وَأَطْوَلَهُمْ غَفْلَةً عَنْ هَذَا أَشَدَّهُمْ تَهَاوُنًا بِهِ
وَلَوْ عَقَلْتَ مِنَ الَّذِي تَرَاهُ تَقَطَّعْتَ أَعْضَاؤُكَ قِطْعًا وَأَنْشَقَّ قَلْبُكَ أَوْ سَحَتْ فِي الْأَرْضِ لَكُنْتَ بِذَلِكَ مَحْمُوقًا

فَلَمَّا لَمْ تَعْقِلْ لَمْ تَجِدْ مَسَ الْحَيَاءِ وَالْخَوْفِ فِي مِرَاقِبَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِطَالَعَتِهِ عَلَى ضَمِيرِكَ وَعِلْمِهِ بِمَا تَجْلِبِهِ حَوَاسِكَ عَلَى قَلْبِكَ وَقُدْرَتِهِ الْمُحِيطَةَ بِكَ ثُمَّ أَعْرَضْتَ بَعْدَ ذَلِكَ كَالْمُتَهَاوِنِ بِهِ إِلَى مِرَاقِبَةِ مَنْ لَا يَطْلُعُ عَلَى سِرِّكَ وَلَا عِلْمَ لَكَ بِمَا فِي ضَمِيرِكَ فَقُلْتَ لَوْ أَطْلَعَ النَّاسُ عَلَى مَا فِي قَلْبِي لَقُلُوبِي وَمَقْتُونِي فَمَسَكَ الْحَيَاءُ وَالْخَوْفُ مِنْهُمْ حَذَرًا مِنْ نُقْصَانِ جَاهِكَ وَسُقُوطِ مَنْزِلَتِكَ عِنْدَهُمْ فَكُنْتَ لَهُمْ مُرَاقِبًا وَمِنْهُمْ خَائِفًا وَمِنْ مَقْتِهِمْ مَشْفِقًا إِذْ لَمْ تَجِدْ مَقْتِ اللَّهِ لَكَ وَسُقُوطِ مَنْزِلَتِكَ وَجَاهِكَ عِنْدَهُ وَمَقْتِ اللَّهِ أَكْبَرَ ثُمَّ إِذَا عَمِلْتَ شَيْئًا مِنَ الطَّاعَاتِ الَّتِي تَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ زَلْفَى فَإِنْ هُمْ أَطْلَعُوا

(1/59)

عَلَيْهَا عَقَدْتَ بِقَلْبِكَ حُبَّ حَمْدِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَحْبَبْتَ اتِّخَاذَ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَهُمْ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ طَاعَةٍ بِعَقْدِ ضَمِيرٍ أَوْ اكْتِسَابِ جَوَارِحٍ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ سِرًّا أَحْبَبْتَ أَنْ يَطْلَعُوا عَلَيْهِ لِيَحْمَدُوكَ وَيَقُومُوا بِهِ جَاهَكَ فَلَمْ تَقْنَعْ بِإِطْلَاعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا بِثَوَابِهِ فِي عَمَلِ السِّرِّ وَلَا فِي عَمَلِ الْعَلَانِيَةِ وَأَنْتَ قَانِعٌ بِذَلِكَ رَاضٍ بِهِ غَافِلٌ مَتَمَادٍ مَعْتَزٍ مَخْدُوعٍ وَكَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ عِنْدَكَ إِحْسَانِ أَحْوَالِكَ وَاحْزَمِ أُمُورَكَ وَلَوْ اسْتَعْنَيْتَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَبِإِطْلَاعِهِ عَلَيْكَ وَبِجَزِيلِ ثَوَابِهِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُمْ وَتَوْفِيقِهِ لَهُمْ وَتَسْدِيدِهِ إِيَّاهُمْ وَرَاقِبَتِهِ لِأَعْيُنِكَ ذَلِكَ عَمَّنْ لَا يَمْلِكُ لَكَ وَلَا لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَقَدْ رَضِيَ مِنْكَ بِذَلِكَ وَلَيْتَكَ تَضَبُّطَهُ فَارْوَى الْفَضَائِلَ بِكَ وَانْفَعَهَا لَكَ إِنْ تَكُنْ نَفْسَكَ عِنْدَكَ دُونَ قُدْرَتِهَا وَأَنْ تَكُنْ سِرِّيرَتَكَ أَفْضَلَ مِنْ عِلَانِيَتِكَ وَأَنْ تَبْذُلَ لِلنَّاسِ حُقُوقَهُمْ وَلَا

(1/60)

تَأْخُذَ مِنْهُمْ حَقَّكَ وَتَتَجَاوَزَ عَمَّا يَكُونُ مِنْهُمْ وَتَنْصِفَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ وَلَا تَطْلُبَ الْإِنْصَافَ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُوَ التَّطْهِيرُ ثُمَّ الْعَمَلُ وَالتَّطْهِيرُ أَوَّلُ بِنَا مِنَ الْعَمَلِ

(1/61)

التَّطْهِيرُ وَالْعَمَلُ أهمية التطهر من الافات قبل العمل

والتطهير هُوَ الْإِنْتِقَالُ عَنِ الشَّرِّ إِلَى الْإِسَاسِ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ الْخَيْرُ وَقَدْ يُمكنُ أَنْ يَسْقُطَ الْبِنَاءُ وَيَبْقَى
الْإِسَاسُ وَلَا يُمكنُ أَنْ يَسْقُطَ الْإِسَاسُ وَيَبْقَى الْبِنَاءُ
وَمَنْ لَمْ يَتَطَهَّرْ قَبْلَ الْعَمَلِ فَإِنَّ الشَّرَّ يَمْنَعُ الْعَبْدَ مِنْ مَنَفَعَةِ الْخَيْرِ فَتَرِكَ الشَّرَّ أَوَّلَى بِالْعَبْدِ ثُمَّ يَطْلُبُ الْخَيْرَ
بَعْدَ
وَالنَّفْسُ تَجْزَعُ مِنَ التَّطْهِيرِ وَتَفِرُ إِلَى أَعْمَالِ الطَّاعَاتِ لِثِقَلِ التَّطْهِيرِ عَلَيْهَا وَخُفَةِ الْعَمَلِ بِالطَّاعَاتِ بِلا
طَهَارَةٍ
فَإِذَا كَانَتْ الطَّهَارَاتُ مُتَقَدِّمَةً أَمَامَ الْعَمَلِ بِالطَّاعَاتِ بَعْدَ خُفَتِهِ عَلَيْهَا

(1/62)

لَمَكَانِ الطَّهَارَةِ فَالْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْإِسْبَابِ الَّتِي يَطْلُبُ مِنْهَا الْخَيْرُ وَتَوْصُلِ إِلَى اللَّهِ شَدِيدَةٌ
فَمَنْ كَانَتْ لَهُ عُنَايَةٌ بِنَفْسِهِ وَخَافَ عَلَيْهَا التَّلَفَ طَلَبَ لَطَائِفَ الْإِسْبَابِ بِدَقَائِقِ الْفُطَنِ وَغَائِصِ الْفَهْمِ
حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا تَمَسَّكَ بِهَا وَعَمَلَ عَلَيْهَا لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ لَأَفَاتِ الْعَمَلِ تَكُونُ قَبْلَ الْعَمَلِ
وَمَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ قَبْلَ سُلُوكِهِ وَحَاجَةُ الْعَبْدِ إِلَى مَعْرِفَةِ نَفْسِهِ وَهَوَاهَا وَعُدُوهِ وَمَعْرِفَةِ الشَّرِّ أَشَدَّ إِنْ كَانَ
كَيْسًا وَهُوَ إِلَى ذَلِكَ أَفْقَرُ إِنْ كَانَ فُطْنًا مَعْنِيًا بِنَفْسِهِ
لِأَنَّهُ لَيْسَ الْعَمَلُ بِكُلِّ الْخَيْرِ يُلْزَمُ الْعَبْدَ وَالشَّرُّ كُلُّهُ لَازِمٌ لِلْعَبْدِ تَرَكَهُ وَمَنْ تَرَكَ الشَّرَّ وَقَعَ فِي الْخَيْرِ وَلَيْسَ
كُلُّ مَنْ عَمَلَ بِالْخَيْرِ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ
وَمَعْرِفَةُ الْعَبْدِ لِلشَّرِّ فِيهَا عِلْمُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَلَيْسَ فِي مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ الْعِلْمَانِ جَمِيعًا لِأَنَّ كُلَّ مَنْ مِيزَ الْخَيْرَ
مِنَ الشَّرِّ فَعَزَلَهُ وَاعْتَزَلَهُ فَكُلُّ مَا بَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ خَيْرٌ كُلُّهُ وَقَدْ يُمكنُ أَنْ يَعْلَمَ الْخَيْرَ وَلَا يَحْسُنَ أَنْ
يُمَيِّزَ مَا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ مِنَ الْإِفَاتِ الَّتِي تَفْسِدُهُ وَتَبْطُلُهُ لِأَنَّ الْخَيْرَ مَشُوبٌ بِمَا جِزَ بِالشَّرِّ وَالشَّرُّ شَرٌّ كُلُّهُ
الشَّيْطَانُ يَضِلُّ النَّاسَ بِالْخَيْرِ وَبِالشَّرِّ

وَقَدْ أَضِلَّ الْعَدُوُّ الْخَبِيثُ عَنِ اللَّهِ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَأَضِلَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بِالشَّرِّ وَإِنَّمَا أَضِلَّ مَنْ أَضِلَّ
مِنْهُمْ بِالْخَيْرِ لِقَلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِمَا يَمَازُجُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ فَجَهِلُوا مَعْرِفَةَ ذَلِكَ وَأَوْهَمَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَكْثَمَ عَلَى
خَيْرٍ وَهَدَى وَطَرِيقَ مَحَبَّةٍ وَسَبِيلَ وَاسْتِقَامَةٍ وَهُمْ ضَالُونَ عَنِ اللَّهِ عَادِلُونَ عَنِ طَرِيقِ مَحَبَّتِهِ وَسَبِيلِ
الْإِسْتِقَامَةِ إِلَيْهِ

(1/63)

وَأَمَّا ذَلِكَ مِنْ كَثْرَةِ الْآفَاتِ الَّتِي تَلْحَقُ الْأَعْمَالَ وَقِلَّةِ عِلْمِ الْعَمَالِ بِهَا فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ
الطَّلَبُ عَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ

مَا أَغْفَلَ النَّاسَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَعَنْ أَهْوَائِهِمْ وَعَنْ عَدُوهِمْ فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ الَّذِي
يُرْدِي وَيُفْسِدُ الْأَعْمَالَ
وَالْحَرِي أَنْ تَارِكَ الشَّرِّ يَكُونُ تَرْكُهُ لَهُ عَلَى قَدْرِ مَا يَعْرِفُ مِنْ ضَرَرِهِ وَهُوَ قَائِمٌ بِفَرْضِ تَقَرُّبِ إِقَامَتِهِ مِنْ
اللَّهِ زَلْفَى وَطَالِبِ الْخَيْرِ يَكُونُ طَلَبُهُ عَلَى قَدْرِ مَا يَرْجُو وَيَعْرِفُ مِنْ مَنَفَعَتِهِ وَمَنْ أَنْ الْعِلْمُ شَيْءٌ وَالْعَمَلُ
شَيْءٌ وَالْمَنَفَعَةُ شَيْءٌ وَزَيْمًا كَانَ عِلْمٌ وَلَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ بِهِ عَامِلًا وَزَيْمًا كَانَ عِلْمٌ وَعَمِلَ وَلَمْ تَكُنْ مَنَفَعَةٌ وَزَيْمًا
كَانَ عِلْمٌ وَعَمِلَ وَمَنَفَعَةٌ ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ إِبْطَالٌ وَإِحْبَاطٌ وَزَيْمًا عِلْمُ الْعَبْدِ وَعَمِلَ وَانْتَفَعَ وَسَلِمَ وَتَمَّ

(1/64)

الْخِصَالُ الَّتِي يَطْلُبُ مِنْهَا الْخَيْرُ
وَطَالِبُ الْخَيْرِ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ خَمْسِ خِصَالٍ سِوَى مَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى عِلْمِ خُدُودِ الْأَعْمَالِ وَاحْكَامِهَا
وَإِدَائِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى خَالِصَةً مَخْلُصَةً بِالصَّدَقِ كَمَا أَمَرَ وَفَرَضَ وَسَنَى فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي أَمَرَ
وَفَرَضَ
صَاحِبُ الْخَيْرِ الْعَامِلُ بِهِ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ الصَّدَقِ وَالصَّوَابِ وَالشُّكْرِ وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ
الصَّوَابِ

أَمَّا الصَّوَابُ فَالسَّنَةُ وَالسَّنَةُ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ تَذَرُكَ وَلَا بِكَثْرَةِ الصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَلَا بِالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ
وَلَا بِغَرَائِبِ الْحِكْمَةِ وَلَا بِالْبَلَاغِ وَالْمَوْعِظَةِ وَلَكِنْ بِالِاتِّبَاعِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسُنَّةِ
رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْإِثْمَةُ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ
وَلَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ تُهْمَةً وَلَا أَكْثَرَ ضَرَرًا عَلَى السَّنَةِ مِنَ الْعَقْلِ فَمَتَى

(1/65)

أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ السَّنَةِ بِالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ خَالَفَهَا وَآخَذَ فِي غَيْرِ طَرِيقِهَا
الصَّدَقِ

وَأَمَّا الصَّدَقُ فَفِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ
تَعْمَلُ الْعَمَلُ ثُمَّ لَا تُرِيدُ عَلَى ذَلِكَ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِلَّا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا تَبْطُلُهُ بِالْمَنْ وَالْإِذَى وَمِنْهُ
صَدَقَ اللِّسَانُ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يَصْدُقُ فِي حَالِهِ بِلِسَانِهِ وَهُوَ عَاصِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صَدَقِهِ وَهُوَ الْمَغْتَابُ

والنمام
الشُّكْر

واما الشُّكْر فمعرفة البُلوى فَإِذَا عَرَفَ ان كل نعمة فَهِيَ من الله

(1/66)

لَا غَيْرَهُ وَاِنَّمَا هِيَ بِلَوَى يَخْتَبِرُ بِهَا عَبْدُهُ شُكْرَ ام كُفْرَ وكل سوء صرف عَنِ الْعَبْدِ فَاللَّهُ تَعَالَى صرفه
ليشكره عبده أَوْ يكفره فَهَذَا من الشُّكْر
فَإِذَا عَرَفَ الْعَبْدُ هَذَا انه من الله وعده من نعمه عَلَيْهِ وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهِ احدا نفسه لَا غَيْرَهَا فقد شكره
فالشُّكْر متفاوت وَالنَّاسُ فِيهِ متباينون متصاعدون وَهَذَا ادناه واما اعلاه فَلَا يَبْلُغُهُ أَحَدٌ وَلَيْسَ لَهُ حد
وَمِنْهُ ايضا وَهُوَ يشبه مَا وَصَفْنَا الا انه اصل الشُّكْر ان يعرف الْعَبْدُ ان مَا بِهِ من نعمة فَمَنْ الله بِقَلْبِهِ
علم يَقِين لَا تخالطه الشُّكوك فَإِذَا عَرَفَ بِقَلْبِهِ ذَلِكَ ذكره بِلِسَانِهِ فحمده عَلَيْهِ ثُمَّ لَمْ يَسْتَعِنْ بِشَيْءٍ من
نعم الْمُنْعَمِ على شَيْءٍ مِمَّا يكره الْمُنْعَم
واعلا من ذَلِكَ من الشُّكْر ان تعد كل بلاء نزل بك نعمة لَأن الله من الْبَلَاءِ مَا انزله بغيرك اشد
واعظم من الَّذِي انزله بك
وَالنَّاسُ يَحْتَاجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ الى الصَّبْرِ وَهُوَ قَائِمٌ بالشُّكْرِ
الرَّجَاءِ

واما الرَّجَاءُ فَهُوَ ان ترجو قبول الاعمال وجزيل الثَّوَابِ عَلَيْهَا

(1/67)

وَتَخَافُ مَعَ ذَلِكَ ان يرد عَلَيْكَ عَمَلُكَ أَوْ يَكُونَ قد دَخَلَتْهُ آفَةٌ أَفْسَدَتْهُ عَلَيْكَ
وَالرَّاجُونَ ثَلَاثَةٌ
رجل عمل حَسَنَةً وَهُوَ صَادِقٌ فِي عَمَلِهَا مَخْلَصٌ فِيهَا يُرِيدُ الله بِهَا وَيَطْلُبُ ثَوَابَهُ فَهُوَ يَرْجُو قَبُولَهَا
وِثْوَابَهَا وَمَعَهُ الْإِشْفَاقُ فِيهَا
وَرَجُلٌ عمل سَيِّئَةً ثُمَّ تَابَ مِنْهَا الى الله فَهُوَ يَرْجُو قَبُولَ تَوْبَتِهِ وَثَوَابَهَا وَيَرْجُو الْعَفْوَ عَنْهَا وَالْمَغْفِرَةَ لَهَا
وَمَعَهُ الْإِشْفَاقُ الا يُعَاقِبُهُ عَلَيْهَا
واما الثَّالِثُ فَهُوَ الرجل يتمادى فِي الدُّنُوبِ وَفِيْمَا لَا يُجِبُهُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَحِبُّ ان يلقى الله بِهِ وَيَرْجُو
الْمَغْفِرَةَ من غير تَوْبَةٍ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غير تَائِبٍ مِنْهَا وَلَا مَقْلَعٍ عَنْهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْجُو
فَهَذَا يُقَالُ لَهُ مُفْتَرٌ مُتَعَلِّقٌ بِالرَّجَاءِ الْكَاذِبِ وَالْإِمَانِي الْكَاذِبَةِ وَالطَّمَعِ الْكَاذِبِ
وَالْقِيَامِ على هَذَا يَقْطَعُ موادَّ عَظَمَةِ الله من قلب الْعَبْدِ فيدوم اعراضه عَنْهُ وَيَأْنِسُ بِجَانِبِ مَكْرِ الله

ويأمن تَعَجِيلُ الْعُقُوبَةِ وَهَذَا هُوَ الْمَفْتَرُ الْمَخْدُوعُ الْمُسْتَدْرَجُ
واما امثالنا من النَّاسِ فَيَنْبَغِي ان يكون الْخَوْفُ عندهم أكثر من الرَّجَاءِ لَانِ الرَّجَاءِ الصَّادِقِ انما يكون
على قدر الْعَمَلِ بالطاعات

(1/68)

الْخَوْفُ

وَالْخَوْفُ على قدر الذُّنُوبِ فَلَوْ كَانَ الرَّجَاءُ يَسْتَقِيمُ بِمَا عَمِلَ لَكَانَ الْحَسَنُ وَالْمَسِيءُ فِي الرَّجَاءِ سَوَاءً
وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ} وَقَالَ
{إِنْ رَحْمَةُ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}
وَمَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ لَوْ وَزَنَ رَجَاءُ الْمُؤْمِنِ وَخَوْفُهُ لَا عُدْلًا يَنْبَغِي ان يكون خَاصًّا بَيْنَ أَهْلِهِ وَهُوَ
قَبْلَ الْحَدِيثِ الْآخَرِ الْمُؤْمِنُ كَذِي قَلْبَيْنِ قَلْبٌ يَرْجُو بِهِ وَقَلْبٌ يَخَافُ بِهِ فَإِنَّمَا هُوَ إِذَا أَحْسَنَ رَجَا وَإِذَا
إِسَاءَ خَافَ مَعَ التَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ وَالْإِقْلَاعِ
فَإِنَّمَا مِنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِكَثْرَةِ الْإِسَاءَةِ فَيَنْبَغِي ان يكون خَوْفُهُ على قدر ذَلِكَ وَرَجَاؤُهُ على قدر مَا
يَعْرِفُ مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ لَانِ الرَّجَاءِ على قدر الطَّلَبِ وَالْخَوْفُ على قدر الْهَرَبِ

(1/69)

الْبُلُوي وَالْإِخْتِبَارُ

الْقُرْآنُ يَقَرُّرُ الْإِبْتِلَاءَ بِالْدُنْيَا كُلِّهَا

وَاعْلَمْ أَيَقْنَنَّ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا كَثِيرٌهَا وَقَلِيلٌهَا حُلُوهَا وَمَرَهَا وَأَوَّلَهَا وَآخِرُهَا وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهَا بُلُوى مِنْ
اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ وَالْإِخْتِبَارِ
وَبُلُوهَا وَإِنْ كَثُرَتْ وَتَشَعَّبَتْ وَاخْتَلَفَتْ فَهِيَ مَجْمُوعٌ كُلُّهُ فِي خِلَتَيْنِ فِي الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ فَإِنَّمَا ان يشكر
على نِعْمَةٍ أَوْ يَصْبِرَ على مُصِيبَةٍ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}
وَقَالَ {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ}
وَقَالَ {وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ}

(1/70)

وَقَالَ {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ}
 وَقَالَ {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}
 وَقَالَ {وَلِنَبْلُوَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}
 وأكثر من ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَأَمَّا كَانَتْ بَلْوَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْلَ مِنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} وَهُوَ
 كُلُّهُ لَكَ بَلْوَى
 أَكْثَرُ الْفِتْنَةِ فِي النَّاسِ

وإن أكثر ما يلي به العبد من أهل الدنيا الناس وافتن الناس لك وأكثرهم لشغلك إنما هو بمعارفك
 منهم واشغل معارفك لك وأكثرهم عليك فتنة من أنت بين ظهرائهم ينظرون اليك وتنظر اليهم
 ويكلمونك وتكلمهم
 فإنك من لم يعرفك من أهل زمانك ولم تعرفه ولم تسمع به كأنك

(1/71)

لم تبتل بهم وكأنهم لم يبتلوا بك وكأنهم لم يكونوا من هذه الدنيا التي أنت فيها
 فأرجع في صبرك إلى الله واستعن به وأنقطع إليه واستانس بذكره وأقل من الخلطاء ما استطعت بل
 اترك القليل أيضا تسلم لقول الله تَعَالَى {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا}
 فاهرب من الفتن
 فارجع صبرك الى معارفك ومن أنت بين ظهرائهم فنظرك اليهم فتنة ونظرهم اليك فتنة وكلامك معهم
 فتنة وكلامهم معك فتنة وجفاؤك لهم فتنة وجفاؤهم لك فتنة وكرامتهم لك فتنة وكرامتك لهم فتنة
 لك
 واعتبر من ذلك بموضع تمر فيه معارفك وموضع تمر فيه ليس فيه أخذ يعرفك
 وهكذا شهوات المطعم والملبس وشهوات العين ما يحل النظر اليه وما لا يحل النظر اليه مما كان من
 ذلك في غير البلدة التي أنت فيها فأنت منها سليم وفتنتها مصروفة عنك ان شاء الله تَعَالَى لأن
 مؤنتها ساقطة وهكذا أنت في جميع امورك

(1/72)

الابتلاء في العمل

وعملك الذي تعمل إنما هو فتنة أنت فيه تريد ان توقى عين الناس وأكثرهم من يعرفك بالخير

فأعمالك لك فتنّة

ان حجبّت فكنت خالياً ليس معك من يعرفك بالخير وتعرفه كان اسلم لك والا فهو فتنّة فانظر كيف تسلم منها وان خرجت من بلدة انت فيها معروف بالخير فخرجت منها وهم لا يعلمون اين تريد فهو اسلم لك وان علموا فهو فتنّة فانظر كيف تسلم منها وكذلك الغزو وبلوى اهل الغزو وما ينوبهم في مغازيهم من الفتنّة والبلية اعظم من بلية غيرهم من الذين يعملون اعمال البر وهم قبل ان يدخلوا في هذه الاشياء في عافية فاذا دخلوها جاءت الفتنّة من التحاسد بعضهم لبعض وطمعهم فيما يرجون من السيّاهم وطمعهم في الحملان وما يجعل للناس في سبيل الغزو ولقد سمعت رجلاً من المذكورين من اهل الغزو وممن له غناء عند لقاء العدو واسم عظيم في المطوعة يقول الخيل قد خرجت ولم

(1/73)

يقض لي الخروج فيها أما السّلامة فأحب ان يسلموا ولكي أكره أن يغنموا وليس أنا فيهم ولقد رأيت من يغار على ما يقوى به بعض الغزاة حيث لم يعط هو وأعطى غيره كما يغار الرجل على بعض حرمه ولقد رأيت من غزا ولم يغنم ود ان لم يكن غزا ولا يؤمن يا أخي على كل من دخل في عمل من أعمال الدُّنيا والاخرة جميعاً إذا لحقتهم في عملهم الآفات التي تفسد الاعمال ان يدخل عليهم الشَّيْطَانُ فيها من العُيُوب والفتن مثل هذا وأكثر من هذا

فليحذر الرجل على كل عمل يعمل من أعمال الدُّنيا والاخرة وليراقب الله فيه ويعامله بضمير خالص ويحذر اطلاع الله على فساده ضميره ويحذر اطلاع المخلوقين على عمله فإن كناس الحشوس أكرم من هذا الصائم وهذا المُصَلِّي وهذا القائم وهذا الغاري الذي يكره ان ينال المسلمون من غنائم الروم والجالس في بيته ببغداد يحب ان يغنموا منهم فاحذر رحمك الله من قرب منك وقربت منه فإن الذين بعدوا منك وبعدت منهم سلموا منك وسلمت منهم يود أقوام غدا انهم لم يكونوا سمعوا بأذاهم كثيراً من أعمالهم التي هي

(1/74)

في رأي العين يُرجى لصاحبها عليها الثَّواب الجزيل والدرجات الرفيعة ويغيثون من لم يكن عمل مثل ما عملوا كثيراً من حسناتهم وبداءهم من الله ما لم يكونوا يحسبون كيف يهلك العبد بأعمال البر

يُقَالُ إِنَّهَا أَعْمَالٌ مِنَ الْبِرِّ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا مَنْجِيَّتُهُمْ فَكَانَتْ هِيَ مَهْلِكَتُهُمْ لَمَّا مَازَجَهَا مِنَ الرِّيَاءِ وَحُبِّ
 الْمَحْمُودَةِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَاتِّخَاذِ الْمَنَازِلِ بِالطَّاعَاتِ وَإِقَامَةِ الْجَاهِ وَحُبِّ الْقَدْرِ وَالْمِيلِ إِلَى ثَوَابِ الْمَخْلُوقِينَ
 فَلَمَّا وَرَدُوا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجَدُوهُ قَدْ أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثَوَابَ
 أَعْمَالِهِمْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ فِي الدُّنْيَا فَافْتَضَحُوا وَفُضِيحَةُ مَا هُنَاكَ بَاقِيَةٌ وَلَمْ يَجِدُوا مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ إِلَّا
 كَمَا وَجَدَ صَاحِبُ السَّرَابِ وَصَاحِبُ الرَّمَادِ
 فَلَيْسَ اسْمُ الْأَعْمَالِ يُزَادُ وَلَا تَزِيدُ ظَاهِرُهَا وَلَكِنْ تَقْوَى اللَّهِ وَمَا يَقْرُبُ إِلَيْهِ زَلْفَى فَلَيْتَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ
 كُلِّ عَمَلٍ يَبَاعِدُ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ اللَّهُ بَعْدَ الْمَشْرِقِينَ
 قَالَ الْعَدُوُّ الْحَبِيثُ ثُمَّ لَا تَنْتَبِهْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي

(1/75)

الْكِتَابِ مِنْ صِفَاتِ إِبْلِيسَ إِلَّا هَذَا قَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِلنَّاسِ أَنْ يَحْذَرُوهُ
 وَلَوْ نَظَرْتَ فِي أَكْثَرِ النَّاسِ لَوَجَدْتَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ إِنَّمَا يُؤْتِي مِنْ قَبْلِ الْبِرِّ وَقَلَّةٌ الْعِنَايَةَ بِتَنْصِيفِ الْأَعْمَالِ وَمَا
 قَدْ اسْتَحَلَّتِ النَّفْسُ مِنْ حُبِّ الْمَحْمُودَةِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ
 وَقَدْ يُؤْتِي قَوْمٌ كَثِيرٌ مِنْ قَبْلِ الْآثَامِ إِلَّا أَنَّ عَلَامَةَ الْفِتْنَةِ فِي النَّاسِ جَمِيعًا مُخْتَلِفَةٌ وَأَكْثَرُ النَّاسِ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ
 مِنْ قَدْ فَتَنَ بِالْآثَامِ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ فَتَنِ بِالْبِرِّ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ النُّورِ وَالْفُطْنِ وَالْفِرَاسَةِ
 وَالتَّوَسُّمِ وَالْكِيَاَسَةِ
 وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَعْمَلُ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَهُوَ يَحِبُّ فِتْنَتَهَا أَكْثَرُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ فِتْنَتَهَا وَالَّذِي يَجْهَلُ فِتْنَتَهَا
 أَكْثَرُ مِنَ الَّذِي يَعْلَمُ فِتْنَتَهَا
 وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْلَمُ فَتَنَ الْأَعْمَالِ وَمِيطَلَاتِهَا ثُمَّ يَغْلِبُهُ الْهُوَى وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ وَتَقِلُّ عِنَايَتُهُ فَيَغْفُلُ
 وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي يَعْمَلُ وَقَدْ عَلِمَ الْآفَاتَ الَّتِي تَفْسِدُ الْأَعْمَالُ وَمَعَهُ الْعِنَايَةُ بِنَفْسِهِ وَعَمَلُهُ وَمَعَهُ التَّبَقُّظُ
 وَإِزَالَةُ الْغَفْلَةِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُشْفَقٌ خَائِفٌ مِنَ الْآفَاتِ مَا يَكَادُ يَسْلَمُ إِلَّا مِنْ عَصَمِ اللَّهِ تَعَالَى فَكَيْفَ
 الَّذِي يَجْهَلُ وَيَغْفُلُ وَيَغْلِبُهُ الْهُوَى وَيُحِبُّ دُخُولَ الْآفَةِ

(1/76)

شُمُولُ الْفِتْنَةِ وَخَطَرُهَا

وَقَدْ طَلَبْتُ الدُّنْيَا فِي زَمَانِنَا خَاصَّةً بِكُلِّ جِهَةٍ بِالْبِرِّ وَالْإِثْمِ جَمِيعًا افْتَتَانًا فَاحْذَرِ فِتْنَةَ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ جَمِيعًا
 لِئَلَّا يَنْزِلَ بِكَ مَا نَزَلَ بِغَيْرِكَ فِي التَّرَكِّ وَالطَّلَبِ
 فَلَنْتَكُنْ هَمْتَكَ فِي النَّظَرِ فِي مِرَاةِ الْفِكْرِ كَالْهَمَةِ بِالْعَمَلِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ شَهَوَاتِ الدُّنُوبِ
 وَالسَّيِّئَاتِ وَشَهَوَاتِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْبَنَاءِ وَالْمَرَاحِبِ وَالْمَنَاحِكِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِأَغْلَبِ

على اصحابها من شهوات الجاه وَحِبِّ الرِّئَاسَةِ وَإِقَامَةِ الْقَدْرِ وَاتِّخَاذِ الْمَنْزِلَةِ وَقَبُولِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ
وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ وَحِبِّ الْعَدَالَةِ عِنْدَ الْجِيرَانِ وَالْإِصْحَابِ وَالْإِخْوَانِ وَالْمَدْحَةِ عَلَى أَصْحَابِ الْبِرِّ فِي
حَسَنَاتِهِمْ

وَقَدْ تَجِدُ الرَّجُلَ يَغْلِبُ شَهْوَةُ الذَّنْبِ فَيَتْرِكُ الذُّنُوبَ وَيَصِيرُ إِلَى أَعْمَالِ الْبِرِّ فَيُضْعَفُ عِنْدَ تَصْفِيَّتِهَا
وَتَغْلِبُهُ شَهْوَةُ مَا فِيهَا فَيَعْمَلُ حَسَنَاتٍ كَثِيرَةً بِقُوَّةٍ وَاقْتِدَارٍ عَلَيْهَا وَظُمًا شَدِيدًا وَسُحْرًا فَلَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ
يَغْلِبَ شَهْوَتَهُ عَلَى تَصْفِيَّتِهَا فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ مِمَّا قَدْ نَزَلَ بِنَا وَمَا أَكْثَرُ خَطَرِنَا

(1/77)

وَمَا أَغْفَلْنَا عَنْ عَظِيمِ الْخَطَرِ
أَحْذَرُ خِدَاعِ الشَّيْطَانِ وَهَوَى نَفْسِكَ

ثُمَّ اعْلَمْ أَنِّي لَسْتُ أَزْهَدُكَ فِي طَلَبِ أَعْمَالِ الْبِرِّ لِأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَا تَعْمَلُهُ الْيَوْمَ لَا تَجِدُ ثَوَابَهُ عَدَا وَلَكِنِّي
أَحْذَرُكَ خِدَاعِ الشَّيْطَانِ وَهَوَى نَفْسِكَ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ
وَفَضْلَ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}
وَقَالَ {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}
وَقَالَ {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَارَةَ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} وَقَالَ {

(1/78)

{وَكَذَلِكَ سَأَلْتِ لِي نَفْسِي} وَقَالَ {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} وَقَالَ
{بَلْ سَأَلْتِ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ} وَقَالَ {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ}
وَقَالَ {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وَقَالَ {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} وَقَالَ {وَاتَّبِعِ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا} وَقَالَ {وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}
مَعَ أَشْيَاءٍ كَثِيرَةٍ فِي ذِكْرِ عَدَاوَةِ إِبْلِيسَ وَذَمِّ النَّفْسِ وَالْهَوَى

(1/79)

كَيْفَ يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ سَلَامَتَهُ مِنَ الْآفَاتِ

قُلْتُ أَرَى مِنَ النَّاسِ أَشْيَاءَ يَعَابُ مِثْلَهَا وَاحِبٌ أَنْ أَسْلَمَ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْأَزْدِرَاءِ وَالْعَيْبِ فَلَا أَدْرِي

اسلمت مِنْهُ نَفْسِي أَمْ لَا
فَقَالَ إِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَ مَعْرِفَةِ عَيْبِ نَفْسِهِ أَبْلَهُ وَعِنْدَ مَعْرِفَةِ عَيْبِ غَيْرِهِ جَهِيذٌ فَيَحْتَقِرُ عَيْبَ أَهْلِ كُلِّ
صِنَاعَةٍ وَأَهْلَ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَحْتَقِرُ عَيْبَ مَنْ هُوَ فِي مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ وَيَسْتَعْظِمُ ذَلِكَ
مِنْ كُلِّ مَنْ رَأَاهُ مِنْهُ فَإِذَا أَتَى عَلَى عَيْبِ نَفْسِهِ جَازَهُ إِلَى عِيُوبِهِمْ كَأَنَّهُ أَعْمَى عَنْهُ لَمْ يَرِهِ
وَهُوَ يَطْلُبُ الْعُذْرَ لِنَفْسِهِ وَلَا يَطْلُبُهُ لغيرِهِ فَهُوَ فِي طَلْبِ عِذْرِهَا جَهِيذٌ وَفِي طَلْبِ عِذْرِ غَيْرِهَا أَبْلَهُ وَهُوَ
يَضْمُرُ عِنْدَ ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ مَا يَكْرَهُ أَنْ يَضْمُرَ لَهُ غَيْرَهُ لَوْ رَأَى مِنْهُ مِثْلَ ذَلِكَ الْعَيْبِ
فَإِذَا رَأَيْتَ عَيْبًا أَوْ زَلَّةً أَوْ عَثْرَةً مِنْ غَيْرِكَ فَاجْعَلْ نَفْسَكَ مَكَانَهُ ثُمَّ انْظُرْ الَّذِي كُنْتَ تَحِبُّ أَنْ يَسْتَقْبَلَكَ
بِهِ لَوْ رَأَى مِنْكَ مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتَ مِنْهُ وَأَضْمِرْ ذَلِكَ لَهُ فِي نَفْسِكَ فَإِنَّهُ يَحِبُّ مِنْكَ مِثْلَ مَا كُنْتَ تَحِبُّهُ مِنْهُ
وَهَكَذَا إِذَا رَأَيْتَ مَا يَسْتَحْسِنُ فَأَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ عِلْمَ السَّلَامَةِ مِنْ

(1/80)

الْحَسَدَ لَهُ
وَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ أَخْفَى النَّاسِ عَلَيْكَ عِنْدَ الزَّلَّةِ مَنْ يَطْلُبُ لَزْلَتِكَ عِذْرًا وَمُخْرَجًا فَإِذَا لَمْ يَجِدْ لِلْعُذْرِ
مَوْضِعًا سَاءَهُ ذَلِكَ وَأَخْفَى مَكَانَهُ وَعِنْدَ حَسَنَتِكَ يَسِرُ فَإِنْ لَمْ يَسِرْ لَمْ تَسُوهُ
فَهَكَذَا فَكُنْ هُمْ عِنْدَ الزَّلَّةِ وَعِنْدَ الْحَسَنَةِ فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ فَلَا تَحِبُّ إِزَالََةَ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ
فِي دِينٍ وَلَا فِي دُنْيَا وَلَا تَحِبُّ أَنْ يُقِيمَ أَحَدٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا تَحِبُّ أَنْ يَهْلِكَ سِتْرُهُ عِنْدَ زَلَّتِهِ
فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِقَلْبِكَ زَالَ عَنْ قَلْبِكَ الْحَسَدُ عَنِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا جَمِيعًا
وَمَتَى غَلَبَتْ عَلَيْكَ الْمُسَابَقَةُ إِلَى ضَمِيرِكَ بِسُوءِ الْمُحْضَرِّ فَلَا تَغْلِبَنَّ عَلَى مَشَاهِدَتِهِ بِحَسَنِ الْمُرَاجَعَةِ مِنْ
جَمِيعِ أُمُورِكَ
عِلْمُ السَّلَامَةِ بِالْمُرَاجَعَةِ وَالتَّفْتِيشِ

وَأَعْلَمْ أَنَّكَ مَسْبُوقٌ إِلَى ضَمِيرِكَ بِالْحَسَدِ وَسُوءِ الظَّنِّ وَالْحَقْدِ فَاجْعَلِ الْمُرَاجَعَةَ شُغْلًا لَا زِمًا وَكُنْ وَقَافًا
كََمَا قَالَ الْأَوَّلُ الْمُؤْمِنُ وَقَافٌ وَلَيْسَ كَحَاطِبِ لَيْلٍ
فَقِفْ وَطَالِعْ زَوَايَا ضَمِيرِكَ بِعَيْنِ حَدِيدَةِ النَّظَرِ نَافِذَةِ الْبَصَرِ فَإِذَا

(1/81)

رَأَيْتَ أَمْرًا مَحْمُودًا صَاحِبَهُ فَاحْمَدِ اللَّهَ وَامْضُ وَإِذَا رَأَيْتَ مَكْرُوهًا دَارَكْتَهُ بِحَسَنِ الْمُرَاجَعَةِ وَاسْتَقْصَيْتَ فِيهِ فَإِنْ
الَّذِي دَخَلَ بَيْتَكَ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْكَ سَوْفَ يَخْتَبِئُ فِيهِ وَإِنْ كَانَ مَظْلَمًا فَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَكَ
سِرَاجٌ مِنَ الْعِلْمِ مَضَى وَاضِحٌ وَيَكُونُ مَعَكَ مِنَ الْعِنَايَةِ بِأَخْذِهِ وَالْإِنْكَارِ لِمَا دَخَلَ فِيهِ مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ
وَلَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ
وَلَوْ قَدْ جَرَبْتَ لَعَرَفْتَ أَنَّ الَّذِي أَقُولُ لَكَ كَمَا أَقُولُ

يَدْخُلُ دَاخِلَ مَنْزِلِكَ بِغَيْرِ إِذْنِكَ وَهُوَ دَاخِلٌ لَا يُؤْمَنُ أَنْ يَخْرُبَ الْمَدْخُولُ عَلَيْهِ فَإِنْ رَأَى الدَّاخِلَ مِنْكَ
تَوَانِيًا وَتَهَاوُنًا كَانَ هُوَ الْمُقِيمُ بِالْمَنْزِلِ الْمُدْبِرُ لَهُ فَاسْتَوَلَى عَلَى حَرِّ بَيْتِكَ وَعَلَى حَرَمَتِكَ وَإِنْ رَأَى مِنْكَ
إِنْكَارًا فِيهِ ضَعْفٌ اخْتَفَى لَكَ لِيَمَسَّ سَهْوَتَكَ وَغَفْلَتَكَ فَإِذَا وَجَدَ فُرْصَةً خَرِبَ عَلَيْكَ مَا كُنْتَ
اصْلَحْتَ وَهَدَمَ مَا بَنَيْتَ فَافْهَمْ إِنْ كُنْتَ تَفْهَمُ وَأَقْبَلِ النَّصِيحَ مِنَ النَّاصِحِينَ إِنْ كُنْتَ تَقْبَلُ
فَلَوْ رَحَلْتَ فِيَمَا أَخَذْتَ الْمَطَايَا فَبَلَغْتَ حَيْثُ تَبْلُغُ مِنَ الْبُعْدِ وَأَنْفَقْتَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ حَرِّ بَيْتِكَ كَانَ
الَّذِي أَخَذْتَ أَكْثَرَ مِنَ الَّذِي أَنْفَقْتَ وَتَعَبْتَ فَإِنَّكَ تَجِدُ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي مِيزَانِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَدَقِ
الْمُرَاجَعَةِ وَمَبَادِرَتِهَا قَبْلَ أَنْ تَبْرُدَ عَنْكَ حَلَاوَتُهَا فَإِنَّهَا مُوهَبَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ مُوَاهِبِ اللَّهِ تَعَالَى أَكْرَمَ

(1/82)

بِمَا أَهْلُ خَاصَّتِهِ وَعَظَمُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ فِيهَا فَإِنْ عَظُمَ النِّعْمَةُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ
فَانْظُرْ هَلْ رَاجَعْتَ نَفْسَكَ وَامْرَكَ الْوَاقِدَ وَجَدْتَ فِيهِ مَوْضِعَ مَرَمَةٍ وَمَصْلَحَةٍ أَوْ وَجَدْتَ مَفْسُودًا بِعَيْنِهِ
فَلَوْ لَمْ تَلْحَقْهُ بِالْمُرَاجَعَةِ لَكَانَ ذَاهِبًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
الْمُرَاجَعَةُ أَسَاسُ السُّلُوكِ الصَّحِيحِ

وَأَعْلَمُ أَنِّي أَكْثَرَ عَلَيْكَ وَعَلَى نَفْسِي مِنْ ذِكْرِ الْمُرَاجَعَةِ لَمَّا قَدْ اسْتَبَانَ لِي مِنَ الْإِضْطِرَارِ وَالْحَاجَةِ
إِلَيْهَا فَلَوْ قَدْ تَعَلَّقْتُ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ فِيهَا يَكُونُ وَنَسْبَتُهَا وَالْأَفْلَا وَمَا تَرَكْتُ لَهَا إِلَّا كَالْمُسْتَأْنَسِ لَعُدُوهُ
وَالْمُسْلِمُ نَفْسَهُ إِلَيْهِ فَهَلَكْتَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ
وَأَنْ كُنْتَ مَتَهَاوِنًا بِمَا أَقُولُ لَكَ فَإِنْ أَكْثَرَ حَاجَتَكَ إِلَيْهَا فِي صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ بَعْدَهَا وَهَلَمْ جَرَا فِي جَمِيعِ
أُمُورِكَ
وَلَوْ كُنْتُ مِمَّنْ يَتَفَقَدُ أَمْرَةً لَعَلِمْتُ مَاذَا دَخَلَ عَلَيْكَ مِنَ النَّدَامَةِ وَالْحَسْرَةِ حَيْثُ فَارَقْتُكَ الْمُرَاجَعَةَ فِي
صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ فَلَمْ تَدْرِ مَاذَا قَرَأَ أَمَامَكَ وَلَمْ تَدْرِ أَفِي فَرَضٍ كُنْتَ أَمْ فِي نَافِلَةٍ فِي صَلَاةٍ كُنْتَ أَمْ فِي
غَيْرِهَا وَأَنْتَ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ مِمَّنْ يُنَاجِي رَبَّهُ

(1/83)

قَدْ اصْغَيْتَ بِأُذُنِكَ إِلَى أَمَامِكَ وَتَخَشَعْتَ بِوُقُوفِكَ وَفَرِغْتَ قَلْبِكَ لِاسْتِمَاعِ مَا يَقْرَأُ أَمَامَكَ مِنْ كَلَامِ
رَبِّكَ فِي صَلَاةِ فَرِيضَتِكَ الَّتِي لَيْسَ شَيْءٌ أَوْجِبُ عَلَيْكَ مِنْهَا فَرَجَعْتَ مِنْهَا وَقَدْ ظَهَرَ مِنْكَ مَا وَصَفْنَا
وَأَنْتَ كَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا لِقَلَّةِ ضَبْطِكَ بِالْمُرَاجَعَةِ لِنَفْسِكَ فِيهَا
وَلَعَلَّ الَّذِي حَضَرْتَ مِنْهَا بِقَلْبِكَ أَوْ عَقْلَتَهُ فَلَمْ تَسْهَ عَنْهُ لَوْ قِيلَ لَكَ اتَّحَبَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْكَ كَمَا
كُنْتَ سَاهِيًا وَلَكَ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ لَقُلْتَ لَا
فَاعْتَنِ الْآنَ بَتَعَاهِدِ هَذِهِ الْمُرَاجَعَةَ عَلَى قَدْرِ مَا عَرَفْتَ مِنْ حَاجَتِكَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا لَكَ مِنْ عَمْرِكَ تَيْقِظُكَ
وَتَيْقِظُكَ مُرَاجَعَةٌ مَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَقُرْبَتُكَ وَالْمَصِيرُ إِلَيْهِ بِالْعَقْلِ وَمَا سِوَى ذَلِكَ غَفْلَةٌ وَسَهْوٌ يُؤْدِيَانِ إِلَى

شَهْوَةٌ فِيهَا غَلِيَانُ قَلْبِكَ وَفِي ذَلِكَ مُوَافَقَةٌ نَفْسِكَ لِامَارَةِ السَّوِّءِ وَالْهَوَى الْمَضِلِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الْعَادِلِ
بِأَهْلِهِ عَنْ طَرِيقِ مَحَبَّتِهِ وَفِي ذَلِكَ تَوَثُّبُ الْعَدُوِّ الْحَبِيثِ الَّذِي لَا يَأْلُوكَ خَبَالًا الَّذِي يَجْرِي مِنْكَ مَجْرَى الدَّمِّ
الَّذِي يَرَاكَ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَاهُمْ
قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ قُلُوبُ الْإِبْرَارِ تَغْلِي بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَقُلُوبُ الْفُجَّارِ تَغْلِي بِأَعْمَالِ الْفُجُورِ فَيَتَعَاهَدُ
أَمْرَكَ بِالْمَرَاةَةِ فَإِنْ دَابَّتْ مَكْرُوهًا

(1/84)

أَصْلَحَتْهُ وَتَحَوَّلَتْ عَنْهُ وَإِنْ رَأَيْتَ غَيْرَ ذَلِكَ حَمَدْتَ اللَّهَ وَكَانَتْ عَنَانِيَّتُكَ بِذَلِكَ زِيَادَةً لَكَ أَوْ قَرِيبَةً
وَإِذَا رَأَيْتَ لَكَ عَنَانِيَّةً بِالْمَرَاةَةِ فَاعْلَمْ أَنَّهَا نِعْمَةٌ وَقَرِيبَةٌ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ وَاحِقٌ مِنْ أَحْسَنَتِ صَحْبَتِهِ
نِعَمَ اللَّهِ الَّتِي مِفْتَاحُ خَزَائِنِهَا رَحْمَةُ اللَّهِ فَالْتَمَسِ الزِّيَادَةَ مِنْهَا بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا وَاحِقٌ مِنْ أَسْأَتِ صَحْبَتِهِ
نَفْسُكَ الْإِمَارَةُ بِالسَّوِّءِ وَالْإِسَاءَةِ إِلَيْهَا مَخَالَفَتُهَا فَإِنْ فِي مَخَالَفَتِهَا مُوَافَقَةٌ مَرْضَاةَ اللَّهِ
الْتِهَانُ فِي الْيَسِيرِ يُوقِعُ فِي الْكَبِيرِ

قُلْتُ فَمَنْ أَهْلُ الْإِرَادَةِ
مَنْ لَمْ يَتَخَطَّ عَيْنًا وَلَا عَوْرَةً إِلَى نَافِلَةٍ
فَمَا حِفْظُ اللَّسَانِ
الصَّمْتُ
فَمَا الْإِحْتِيَاظُ فِي التَّحْفِظِ عِنْدَ الْكَلَامِ

(1/85)

قَالَ تَرَكَ ذِكْرَ عَيْبٍ مِنْ غَيْرِكَ تَرْجُو عَلَى ذِكْرِهِ إِذَا ذَكَرَ بِهِ الثَّوَابَ لِكَيْلَا يُجْرِكَ ذَلِكَ إِلَى ذِكْرِ عَيْبٍ
مِنْ غَيْرِكَ تَخَافُ عَلَى ذِكْرِهِ الْعُقَابَ وَخَذَ نَفْسَكَ بِهَذَا الْبَابِ أَشَدَّ الْإِخْذِ وَاحْمِلْ عَلَيْهِ مِنَ النَّاسِ مَنْ
اسْتَرَشَدَكَ وَأَرَادَ مِثْلَ الَّذِي تُرِيدُ
فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا يُؤْتَى مِنْ قَبْلِ التَّهَانِ بِالْيَسِيرِ وَهُوَ الَّذِي يُوقِعُ فِي الْإِثْمِ الْكَبِيرِ وَالتَّهَانِ بِالْيَسِيرِ هُوَ
الْأَسَاسُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ الْكَثِيرُ فَيَكُونُ أَوَّلُهُ كَأَنَّهُ تَحْفِظًا ثُمَّ صَارَ انْبِسَاطًا ثُمَّ صَارَ مِنَ الْإِنْبِسَاطِ إِلَى
ذِكْرِ الْيَسِيرِ ثُمَّ صَارَ مِنَ الْيَسِيرِ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ فَلَا تَشْعُرُ حَتَّى تَرَى نَفْسَكَ حَيْثُ كُنْتَ تَكْرَهُ أَنْ
تَرَى فِيهِ غَيْرَكَ فَفِي تَرْكِ الْيَسِيرِ تَرْكُ الْيَسِيرِ وَالْكَثِيرِ
وَأَقْوَى النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ وَاصْدَقُهُمْ عَزَمًا هُوَ الَّذِي إِذَا عَزَمَ امْضَى عَزْمُهُ وَلَمْ يَلَوْ وَأَضْعَفُ النَّاسِ فِي
ذَلِكَ أَضْعَفُهُمْ عَزَمًا وَهُوَ الَّذِي يَعَزِمُ ثُمَّ يَحِلُّ عَزْمُهُ وَلَا يَكَادُ يَمْضِي عَزْمًا
فَهَذَا الَّذِي يَتَلَاعَبُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَالْهَوَى وَالنَّفْسُ لَيْسَ لَهُ عِنْدَهُمْ قَدَرٌ لِكَثْرَةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِتَنَاقُصِ عَزْمِهِ
وَقِلَّةِ اسْتِعْمَالِهِ وَأَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ النَّاسِ أَفْضَلُ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ طَبَقَةٍ

القريب من التوبة والبعيد منها
صدق الندم وعلامته

قلت فمن أرجا الناس لقبول التوبة منهم
قال اشدّهم خوفاً وأصدقهم ندامة على ما كان منه وما شاهدته الله واطلع عليه من زلله وخطله وطول
غفلته ودوام إعراضه وأحسنهم تحفظاً فيما يستقبل وإن استؤوا في ذلك فاشدّهم اجتهداً في العمل
لأن علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب شدّة التحفظ فيما بقي من الغمر وموابة الطاعة
بالجد والاجتهاد واستقلال كثير الطاعة واستكثار قليل النعمة مع رقة القلب وصفائه وطهارته ودوام
الحزن فيه وكثرة البكاء والتفويض الى الله تعالى في جميع الامور والتبري إليه من الحول والقوة ثم الصبر
بعد ذلك على أحكام الله عز وجل والرضا عنه في جميعها والتسليم لاموره كلها

(1/86)

الخطأ في طريق التوبة ونتائجه

وقال لي قد علمت من أين غلطت أحسنت الظن بنفسك فتاقت الى درجات المحسنين بخلاف
سيرتهم من غير إنكار منك عليها لمساويء أعمالاً ولا دفع لما ادّعت من اعمال الصّادقين
وأساءت الظن بغيرك فانزلتهم في درجة المسيئين إغفالا منك لشأنك وتفرغت للنظر في غيوب غيرك
فلما كان ذلك منك كذلك عوقبت بأن غارت غيونا الرأفة والرحمة من قلبك وانفجرت إليه أنهار
الغلظة والقسوة فأحببت أن تنظر الى الناس بالإزراء عليهم والاحتقار لهم وقلة الرحمة وأردت أن
ينظروا اليك بالتعظيم والمهابة والرحمة فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قربا ومحبة ونلت أنت
من الله تعالى بعدا وسخطا ومن خالفك فيه ازداد منك بعدا وبغضا وازددت انت من الله بعدا
وسخطا

وأطلت في ذلك كله أملك فطاب لك المسير في طريق التسوييف ومدارج الحيرات فاشتدت رغبة
نفسك واستمكن الحرص من قلبك فعظمت لذلك في الدنيا رغبتك وشحت فجمحت الى شهواتها
واحتوشت قلبك لذاها فحال ذلك بينك وبين ان تجد حلاوة سلوك طريق الآخرة

(1/88)

فقلبك حيران على سبيل حيرة قد اشتبهت عليك سبل النجاة وشقق حجاب الذنوب فأنست لقربها
وطاب لك شم ريحها فوصلت بذلك الى محض المعصية فادعيت ما ليس لك وتناولت ما يبعد مرامه
من مثلك
ثم أخرجك ذلك الى ان تكلمت لغير الله ونظرت الى ما ليس لك وعملت لغير الله فكنت مخدوعا

مَسْبُوعًا عِنْدَ حَسَنِ ظَنِّكَ بِنَفْسِكَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ وَمُسْتَدْرَجًا صَ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُ فَكَانَ مِيرَاثَ
عَمَلِكَ الْخُبْثَ وَالْجَرِيرَةَ وَالْغَشَّ وَالْخَدِيعَةَ وَالْخِيَانَةَ وَالْمَدَاهِنَةَ وَالْمَكْرُوهَ وَتَرَكَ النَّصِيحَةَ وَأَنْتَ فِي ذَلِكَ
كُلُّهُ مَظْهَرٌ لِمُبَايَنَةِ ذَلِكَ

فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ سِيرَتُهُ فَلَا يُنْكِرُ أَنْ يَبْدُو لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبُ
فَلَوْ كَانَ لَكَ يَا مُسْكِنُ أَدْنَى تَخَوُّفٍ لِبَكَيْتٍ عَلَى نَفْسِكَ بِكَاءِ الشَّكْلِ الْمَحَبَّةِ لِمَنْ أَثْنَلْتَ وَنَحْتِ
عَلَيْهَا نِيَاحَةَ الْمَوْتَى حِينَ غَشِيكَ شُؤْمُ الذُّنُوبِ
وَلَوْ بَكَى عَلَيْكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ لَكُنْتَ مُسْتَوْجِبًا لِذَلِكَ لِعَظَمِ مَصِيبَتِكَ
وَلَوْ عَزَاكَ عَلَيْهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ تَعْزِيَةً لِلْمَحْرُوبِ الْمَسْلُوبِ لَكُنْتَ مُسْتَحَقًّا لِذَلِكَ لِأَنَّكَ قَدْ حَرَمْتَ دِينَكَ
وَسَلَبْتَ مَعْرِفَتَكَ بِشُؤْمِ الذُّنُوبِ فَرَكَبَكَ

(1/89)

ذَلِ الْمَعْصِيَةِ وَأَثْبَتِ اسْمَكَ فِي دِيْوَانِ الْعَاصِينَ وَاسْتَوْحَشَ مِنْكَ أَهْلُ التَّقْوَى إِلَّا مَنْ كَانَ فِي مِثَالِكَ
فَاخَذَ الَّذِينَ أَرَادُوا اللَّهَ وَحْدَهُ فِي طَرِيقِ الْمَحَبَّةِ لَهُ وَسَلَكُوا سَبِيلَ النِّجَاةِ إِلَيْهِ وَأَخَذَتْ فِي غَيْرِ طَرِيقِهِمْ
فَمَلَتْ حِينَ خَالَفَتْ طَرِيقَهُمْ إِلَى غَيْرِهِ فَبَقِيَتْ مَتَحِيرًا وَعَنْ وَجْعِ الْأَصَابَةِ مُتَبَلِّدًا
وَيُمَثِّلُ هَذِهِ الْأَسْبَابُ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا طَرِيقَتُكَ يَسْتَدَلُّ عَلَى خَسْرَانِ الْقِيَامَةِ وَبِاللَّهِ نَعُوذُ وَآيَاهُ
نَسْأَلُ عَفْوًَا وَتَقْرِيْبًا مَعَ الْمُحْسِنِينَ أَنَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

(1/90)

الْمَعْرِفَةَ بِأَعْمَلٍ وَسَبِيلَةٍ لِلْعَمَلِ
قُلْتُ أَمَا تَخَافُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ حِجَّةً عَلَيْكَ وَالِاشْتِغَالُ بِوَصْفِهَا خُدْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ طَوِيلَةً
وَصَدَا عَنْ نَفْعِهَا
فَقَالَ وَأَسْوَآتُهُ مِنْ غَفْلَةٍ وَاصْطَفَاهَا عَنْ مُحَاسِنَتِهَا وَمَنْ رَامَ رَمِي فَلَمْ يَخْطِئْ حَيْثُ أَرَادَ فَأَمَّا الْأَمْنُ فَمَحْرُومٌ
وَأَمَّا الْخَوْفُ فَفَرَضَ عَلَى مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ
وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْقَصْدَ إِلَى نَفْسِ الْمَحَبَّةِ وَالْعِنَايَةِ بِمَا أِبْلَغَ لِصَاحِبِهَا وَكَثُرَ لَهُ فِي الْمَنْفَعَةِ مِنْهُ بِوَصْفِ
الْمَحَبَّةِ لِأَنَّ طَلَبَ نَفْسِ الْمَنْفَعَةِ غَيْرُ طَلَبِ وَصْفِ الْمَنْفَعَةِ وَأَمَّا اشْتَغَالُ بِالْوَصْفِ اضْطِرَارًا حَيْثُ
رَأَيْتَ نَفْسِي خَارِجًا مِنْهُمَا جَمِيعًا فَاعْتَنَيْتَ بِمَعْرِفَةِ وَصْفِهَا وَالْهَدَايَةَ إِلَيْهَا رَجَاءً أَنْ

(1/91)

يوصلني ذَلِكَ الى نفس الْمُنْفَعَةِ وَالْهِدَايَةِ اليها وَالله الْمُسْتَعَان على مَا نَقُول وَمَا نَضْمُر
خُلَاصَةَ المعارف

وان الْعَبْدَ بَيْنَ تَسَعِ مخاوف
فأولها ان يَخَاف وَيَدْعُو الله ويتضرع إِلَيْهِ الا يكله الى حَسَنَاتِهِ الَّتِي يتعزز بها في عباد الله ظلما
وعدوانا
وَالثَّانِيَةِ ان يَخَاف من كفران النعم الَّتِي قد غلب عَلَيْهِ البطر بها فأشغله عَنِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا
وَالثَّالِثَةَ خوف الاستدراج بِالنَّعَمِ وتواترها
وَالرَّابِعَةَ خوف الله ان يَبْدُو لَهُ غَدَا من الله مَا لم يكن يَحْتَسِبُ في طاعاته الَّتِي يَرْجُو ثَوَابَهَا وَلَمْ يَعْدَهَا من
ذُنُوبِهِ
وَالْخَامِسَةَ الدُّنُوبَ الَّتِي عَمَلَهَا واستيقن بها فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله تَعَالَى
وَالسَّادِسَةَ تبعات النَّاسِ قبله
وَالسَّابِعَةَ انه لَا يَدْرِي مَا يحدث لَهُ في بَقِيَّةِ عمره

(1/92)

وَالثَّامِنَةَ ان يَخَاف تَعْجِيلَ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالنَّكَالَ فِيهَا قبل الْفُوتِ
والتاسعة الْخَوْفُ من علم الله تَعَالَى فِيهِ وَفِي أَيِّ الدَّارَيْنِ اثْبَتَ اسْمُهُ فِي ام الْكِتَابِ
فاحذر الدُّنُوبَ فَإِنْ شَوَّمَهَا قَرِيبَ وظلمتها شَدِيدَةٌ وَاحْذَرُ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَبَاعَدُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ طَرِيقِ
الصَّالِحِينَ فَمَا اقْرَبِ الْقَارِئِ الْمُتَعَبِّدِ بِغَيْرِ مَعْرِفَةٍ ان يتكبر على عباد الله عز وجل ويمن على الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْحَسَنَاتِ الَّتِي لَوْ وَكَلَهُ إِلَهِهَا كَانَ فِيهَا هَلَاكُهُ وَمَا اقْرَبَهُ من ان يطلب النَّاسَ بِمَا اراده
الله مِنْهُمْ من الطَّاعَةِ لَهُ عز وجل والاحلال والاعظام وَالْقَدْرَ الْعَظِيمَ
وَلَا يُؤْمِنُ على الْقَارِئِ غَيْرِ الْفَقِيهِ ان يسيء اليهم وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ الْاِقْرَارَ بِالاحسان ويعطيهم من نفسه
مَا اراد الله مِنْهُ
ان الله تَعَالَى اراد مِنْهُ ان يتزين لَهُ ويتعبد لَهُ ويخلص لَهُ الْعَمَلُ وَحده فَأَعْطَى هُوَ للمخلوقين ذَلِكَ من
نَفْسِهِ

(1/93)

الْمَدْحُ وَالذَّمُّ

الْفَرْقُ بَيْنَ الرِّيَاءِ وَحُبِّ الْمَدْحِ وَكَرَاهَةِ الذَّمِّ

قلت الرجل يَقُول انه مِمَّنْ لَا يُرِيد بِعَمَلِهِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ مَدَحَهُ قَوْمٌ فَسَرَهُ ذَلِكَ جِدًا وَفَرَحَ بِهِ وَذَمَهُ آخَرُونَ فَسَاءَهُ ذَلِكَ جِدًا وَكَرِهَهُ حَتَّى عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ التَّغَيُّرَ لِكُلِّ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا كَيْفَ يَعْرِفُ هَذَا نَيْتَهُ وَحُبَّ الْحَمْدَةِ وَكَرَاهِيَةِ الْمَذْمَةِ ثَابِتٌ فِي قَلْبِهِ وَالْمَرَاتِي يَحِبُّ الثَّنَاءَ وَيَكْرَهُ الْمَذْمَةَ قَالَ انه لَا يَجِبُ عَلَى النَّاسِ انْ يَكْرَهُوا الثَّنَاءَ الْحَسَنَ وَالْحَمْدَةَ وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ انْ يُحِبُّوا الْمَذْمَةَ عَمَلُوا الْحَسَنَاتِ أَوْ لَمْ يَعْمَلُوا اِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُمْ مِنْ مَعْنَى فَاسِدٍ لِأَنَّ الْمَرَاتِيَّ وَاِنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَمَلَ عَلَى انْ يَحِبُّ الْحَمْدَةَ وَيَكْرَهُ الْمَذْمَةَ فَإِنَّ الصَّادِقَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ انْ يَكْرَهُ الثَّنَاءَ وَيُحِبُّ الْمَذْمَةَ وَاِنْ أَكْثَرَ الصَّادِقِينَ قَدْ مَدَحُوا وَاتَّبَعُوا عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَضُرَّهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا وَاِنَّمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا انْ الْمَرَاتِيَّ ارَادَتْهُ وَأَمَلَهُ فِي عَمَلِهِ جَاهُ الدُّنْيَا وَالْمَنْزِلَةُ عِنْدَ أَهْلِهَا فَأَفْسَدَ عَمَلَهُ بَنِيَّتُهُ وَارَادَتْهُ نَالَ الَّذِي ارَادَ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَنْلِهِ حَمْدُهُ عَلَى عَمَلِهِ أَوْ لَمْ يَحْمَدُوهُ ذَمُّهُ أَوْ لَمْ يَذْمُوهُ

(1/94)

وغير المرآتي انما كره المذمة لخال ما فيها من الكراهية مثل الشقوق من عين الناس والبغضة والملقت من المؤمنين واشباه ذلك والثناء الحسن والقول الجميل احبه لموضع ستر الله ولما جاء من الرجاء في الثناء الحسن والقول الجميل والحب من الناس ومودتهم له وكان اعتقاد نيته وعزمه في اول امره وآخره الا يريد بذلك إلا وجه الله وحده والدار الآخرة حمدوه أو ذموه احبوه أو ابغضوه الخوف من تحول النية

وربما كان اعتقاد الرجل عند عمله ارادة الآخرة ثم ينتقل قليلا قليلا الى ارادة الدنيا وذلك انه شيء خفي والعامية تقل معرفتهم به وعنايتهم بذلك وتكثر غفلتهم وسهوتهم عنه وقد كان ينبغي ان تكون عناية المؤمن بذلك أكثر من عنايته بما يعمل من الاعمال الظاهرة لأن اعمال الجوارح لا يمكنه ان يقلبها ولا يغيرها عن حالها والنية لا يأمن عليها الفساد وان كانت صادقة صحيحة ان تتحول من احسن ما كانت عليه الى اقبح ما تكون عليه وافسده لعمل صاحبها

(1/95)

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنية وانما لامرئ ما نوى فالاعمال بالنية تكون وعن النية تكون فالعبد احوج الى معرفة النية ومعرفة فسادها اذ كانت الاعمال انما تصح بتصحيحها وتفسد بفسادها وان جميع ما نذكره انما هو وصف للعمل وللحقيقة والصحة علامات غير هذا وان الاعمال كلها عمالان عمل تمكن فيه النية وعمل لا تمكن فيه النية والعمل لغير طاعة الله أو

على غير سنة رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَمُكِّنُ فِيهِ النَّيَّةُ وَالَّذِي تَمُكِّنُ فِيهِ النَّيَّةُ عَمَلٌ فِي طَاعَةِ
اللَّهِ عَلَى السَّبِيلِ وَالسَّيِّئِ وَالنَّاسِ فِيهِ صِنْفَانِ
صِنْفٌ يَعْرِفُونَ النَّيَّةَ وَصِنْفٌ لَا يَعْرِفُونَ النَّيَّةَ
وَالَّذِينَ يَعْرِفُونَهَا صِنْفَانِ
صِنْفٌ يَقْنَعُهُمُ النَّظَرُ فِيهَا بِالْجُزْأِ وَالْآمَانِي وَصِنْفٌ لَا يَأْتَمِنُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهَا وَلَا يَعْنُونَ إِلَّا بِمَا يَصِحُّ
لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ وَهُوَ الْحَنَةُ مَحَنَةُ نَفْسِكَ
وَجُوبُ الدَّقَّةِ فِي مِرَاقِبَةِ الْقَلْبِ

وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَرَى أَنَّهُ يَكْرَهُ الْمَحْمَدَةَ وَالْثَنَاءَ أَشْفَاقًا عَلَى عَمَلِهِ وَخَوْفًا

(1/96)

مَنْ فَتَنَتْهُ فَلَا يَعْأُ بِمَا يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَيُظَنُّ لِأَنَّهُ كَثُرَ مَا يَظُنُّ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا يَظُنُّونَ
حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَى تَحْقِيقِ صَدَقَةِ عِنْدَ الْبَيَانِ
فَلْيُرَاجِعِ الْعَبْدُ نَفْسَهُ إِذَا انْتَبَهَ عَلَيْهِ أَوْ مَدَحَ أَوْ ذَمَّ أَوْ نَسَبَهُ إِلَى مَا يَكْرَهُ فَإِنْ كَانَ مَا أَعْجَبَهُ مِنَ
الْثَنَاءِ وَالْمَدْحَةِ أَمَّا أَعْجَبَهُ لِمَعْنَى مَا قُلْنَا مِنَ السُّتْرِ وَالرَّجَاءِ فِي الثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالْقَوْلِ الْجَمِيلِ لِمَثَلِ قَوْلِهِ
تَعَالَى {وَالْقِيَتِ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي} {وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا} قَالَ الثَّنَاءُ وَقَالَ {وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً} قَالَ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ وَقَوْلُهُ {وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} قَالَ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ
وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الرَّجُلِ يَعْمَلُ الْعَمَلَ يُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهِ النَّاسُ وَيُثْنُونَ
عَلَيْهِ بِهِ فَقَالَ تِلْكَ عَاجِلُ بَشَرِي الْمُؤْمِنُ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعَبْدِ إِذَا أَحَبَّهُ اللَّهُ لَمْ يُخْرِجْهُ
مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلَأَ مَسَامِعَهُ بِمَا يَحِبُّ وَقَوْلُهُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ
فَإِنْ كَانَ سُرُورُهُ بِمَا ذَكَرَ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ شُكْرًا لِسُتَرِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَحَمْدًا

(1/97)

مِنْهُ اللَّهُ إِذَا جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يَذْكُرُ بَعْلَامَةَ الْخَيْرِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِسُرُورٍ فَاسِدٍ وَلَكِنَّهُ شُكْرٌ وَطَلَبٌ
لِامْتِزَاجِ

وَعَلَامَةُ سَلَامَةِ نِيَّتِهِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَزْدَادَ اللَّهُ تَوَاضَعًا وَلَا لَئِنَّهُ شُكْرًا وَفِي طَاعَتِهِ اجْتِهَادًا وَمَعَ ذَلِكَ يَنْبَغِي
أَنْ يَرُدَّ نَفْسَهُ إِلَى طَرِيقِ الْمَخَافَةِ مِنَ الْاسْتِدْرَاجِ وَيَكُونَ مَا خَفِيَ مِنْ عَمَلِهِ أَحَبَّ إِلَيْهِ بِمَا ظَهَرَ مَخَافَةً مَا
يُلْحِقُ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنَ الْفِتْنَةِ فِيمَا يَسْتَمِعُونَ مِنَ الْمَدْحَةِ وَالْثَنَاءِ وَلَمَّا جَاءَ مِنَ النَّهْيِ وَالْكَرَاهَةِ وَالتَّزْكِيَةِ
وَالْمَدْحَةِ أَنْ يَسْمَعَ صَاحِبَهُ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَدْحِ إِخَاهِ فِي وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَمْرٌ
عَلَى حَلْقِهِ مُوسَى رَمِيضًا وَمِثْلُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ سَمِعْتُكَ مَا أَفْلَحَ وَمِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَقَرْتُ الرَّجُلَ عَقْرَكَ اللَّهُ وَهَذَا نَحْوُهُ كَثِيرٌ

فَإِذَا كَانَ مَذْهَبُهُ وَنَيْتُهُ شُكْرَ اللَّهِ عَلَى سِتْرِهِ وَحَمْدَ اللَّهِ عَلَى نِعْمَتِهِ وَيَكُونُ مَا سَبَقَ مِنَ السُّرُورِ إِلَى قَلْبِهِ فِي ثَنَاءٍ إِذَا سَمِعَهُ رَجَاءَ الْقُدُورَةِ بِهِ إِذَا كَانَ يَمُنُّ بِصَلَحِهِ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} يَقُولُ أَيْمَةً فِي الْحَيْرِ يَقْتَدِي بِهَا
فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ رَجَوْتَ إِلَّا يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَلَا يَفْسُدُ عَلَيْهِ عَمَلُهُ
وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ مَطْرَفٍ أَنَّهُ قَالَ مَا سَمِعْتُ ثَنَاءً أَوْ مَدْحَةً إِلَّا تَصَاغَرْتُ إِلَى نَفْسِي

(1/98)

وَقَالَ زِيَادُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ لَيْسَ أَخُذُ مَسْمَعِ ثَنَاءٍ أَوْ مَدْحَةٍ إِلَّا تَرَأَى لَهُ شَيْطَانٌ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يُرَاجِعُ
فَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ صَدَقَ كِلَاهُمَا
أَمَّا مَا ذَكَرَ زِيَادٌ فَذَلِكَ قَلْبُ الْعَوَامِّ وَأَمَّا مَا ذَكَرَ مَطْرَفٌ فَذَلِكَ قَلْبُ الْخَوَاصِّ
وَأَنْ كَانَ مَذْهَبُهُ وَنَيْتُهُ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ وَسِرَّ بِهِ طَلِبَ الرَّفْعَةِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَ النَّاسِ فَمَا أَسْوَأَ حَالِهِ فِي أَحْبَابِ
عَمَلِهِ
مَذْهَبُ الصَّالِحِينَ وَأَهْلُ الرِّيَاءِ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ

وَأَمَّا الْمَرَائِي فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ مَذْهَبُهُ وَنَيْتُهُ فِي أَوَّلِ عَمَلِهِ وَآخِرِهِ طَلِبُ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدَةِ وَالرَّفْعَةِ وَالتَّكْرِمَةِ
عِنْدَ النَّاسِ وَاحِرَازُ الْمَنَافِعِ بِهِ فَذَلِكَ الَّذِي جَاءَهُ الْوَيْلُ وَالثُّبُورُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
فَإِنْ كَانَ يَعْرِفُ مَعْرِفَةً حَقًّا أَنْ مَا أَعْجَبَهُ هَذَا الْمَعْنَى وَلَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ لَمَّا نَالَ مِنَ الْجَاهِ عَنْدهُمْ فَلَا
جَنَاحَ عَلَيْهِ
وَعَلَامَتُهُ أَنْ يَزْدَادَ تَوَاضَعًا وَيَحْدُثُ خَوْفًا مِنَ الْاسْتِدْرَاجِ وَمَا يَخْفَى مِنْ عَمَلِهِ فَهُوَ أَحَبُّ مِمَّا يَظْهَرُ لِأَنَّهُ
طَمِعَ فِي طَرِيقَةِ الصَّالِحِينَ فَعَلَى قَدَرِ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَرْغَبَ فِي أَعْمَالِهِمْ وَمَا نَالُوا بِهِ اسْمُ الصَّلَاحِ
وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهِ مَعَ مَا يَلْزِمُهُ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الْفِتْنَةِ مِمَّا يَلْزِمُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدَةِ إِذَا اثْنَى عَلَيْهِمْ أَوْ
مَدَحُوا مِثْلَ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَقَرْتُ الرَّجُلَ

(1/99)

وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَوْ سَمِعْتُكَ مَا أَفْلَحَ وَقَوْلِهِ قَطَعْتَ عُنُقَ أَخِيكَ وَقَوْلِهِ إِيَّاكُمْ وَالْمَدْحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ وَقَوْلُهُ إِذَا رَأَيْتُمْ
الْمَدَاحِينَ فَاحْتُوا فِي وَجُوهِهم التُّرَابَ وَقَوْلُهُ لَوْ مَشَى رَجُلٌ إِلَى رَجُلٍ بِسَكِينٍ مَرَهْفٍ كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ
يُثْنِيَ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ وَمِثْلَ هَذَا كَثِيرٌ
وَصَاحِبُ الْمَدْحَةِ الْخَوْفُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنَ الرَّجَاءِ لِأَنَّ الْخَوْفَ لَا يَضُرُّهُ وَالرَّجَاءُ لَا تَوْمَنُ فِتْنَتُهُ
وَعَلَامَةُ أَصْحَابِ الْجَاهِ فِي الدُّنْيَا وَأَصْحَابِ الرِّيَاءِ الْخَبِيرِينَ لَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا الثَّنَاءَ وَالْحَمْدَةَ أَحْبَبُوا
ذَلِكَ وَازْدَادُوا عِزًّا وَاعْجَابًا بِأَنْفُسِهِمْ وَغَفَلُوا عَنِ الْاسْتِدْرَاجِ وَتَمَادَوْا وَتَمَنَّوْا وَطَمَعُوا أَنْ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ
مِنْ أَعْمَالِهِمْ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مَا خَفِيَ وَلَمْ يَخَافُوا مِنْ فِتْنَةٍ وَلَا مِنْ آفَةٍ

وَكَذَلِكَ إِذَا كَرِهَ الْمَذْمُومَةُ أَمَّا كَرَاهِيَتُهَا لِأَنَّهُ أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ مَكَانَهَا مَذْحَةً وَثَنَاءً لِنَيْلِ بِذَلِكَ الْجَاهِ وَالْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالرَّفْعَةِ عِنْدَ النَّاسِ فَهِيَ كَرَاهِيَةٌ سَقِيمَةٌ مَذْمُومَةٌ وَصَاحِبُهَا مَغْرُورٌ مَخْدُوعٌ وَأَنْ كَانَ أَحَبُّ إِلَيْهِ حُبُّ مَنْهُ لَسْتَرِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَرَاهِيَةٌ هَتَكَ السِّتْرَ عَنْهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَمُقْتَهُ النَّاسُ حَتَّى جَاءَهُ الْمَقْتُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَبْلَ مَقْتِ النَّاسِ فَإِنْ كَانَتْ الْكَرَاهِيَةُ أَمَّا هِيَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَإِنْ هَذَا يَكْرَهُهُ الصَّادِقُ وَغَيْرُ الصَّادِقِ فَلَا يَلَامُ عَلَيْهِ وَعَلَامَتُهُ التَّضَرُّعُ وَالِاسْتِكَانَةُ وَالْمَرَاجَعَةُ وَالنَّظَرُ فِي التَّخَلُّصِ إِلَى طَرِيقِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَبِيلِ الْإِسْتِقَامَةِ وَمَحَبَّةِ الْإِيمَانِ وَالْجِدِّ فِيهِ

(1/100)

زِيَادَةُ بَيَانٍ لِعَلَامَاتِ الْفَرِيقَيْنِ

وَأَبِينِ مِنْ ذَلِكَ أَنْ كُلَّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَلَا يُرِيدُ مِنْ أَخْذٍ عَلَى عَمَلٍ يَعْمَلُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ثُمَّ عَرَفَهُ النَّاسُ بِعَمَلِهِ وَذَكَرَ بِهِ وَصَارَ مَعْرُوفًا عَنْدهُمْ وَنَالَ مِنْهُمْ الرِّفْعَةَ فَإِنْ كَانَ يَعْرِفُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَوَّلَ اسْمُهُ وَمَا نَالَ بِعَمَلِهِ مِنَ النَّاسِ مِنَ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدَةِ إِلَى غَيْرِهِ وَيَبْقَى هُوَ عِنْدَ النَّاسِ كَمَنْ لَا يَعْرِفُ لَهُ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ ذَكَرَ وَلَا غَيْرِهِ فَكَانَ هَذَا أَحَبُّ إِلَيْهِ فَأَمَرَهُ مَرْجُوٌّ وَأَنْ كَرِهَ أَنْ يَتَحَوَّلَ ذِكْرُهُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ إِلَى غَيْرِهِ وَيَبْقَى هُوَ كَمَنْ لَا يَعْرِفُ لَهُ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ فَدَعَاوَاهُ حَبْنَدٌ بَاطِلَةٌ لِأَنَّ الَّذِي يَقُولُهُ أَنَّهُ يُرِيدُهُ بِعَمَلِهِ وَلَا يُرِيدُ غَيْرَهُ فَإِذَا تَحَوَّلَ ذِكْرُهُ إِلَى غَيْرِهِ لَمْ يَحُولِ الَّذِي عَمِلَ لَهُ الْعَمَلُ الثَّوَابَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَمْ يَنْقُصْهُ مِنْ ثَوَابِهِ شَيْئًا وَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ لَهُ عِنْدَهُ وَأَقْرَبَ مَثْوًى وَالَّذِي كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَرِيدُهُمْ بِهِ كَرِهَ أَنْ يَزُولَ عَنْهُ الْإِسْمُ الَّذِي ثَبَتَ لَهُ عَنْدهُمْ بِهِ الْمَنْزِلَةُ وَكَرِهَ أَنْ يَبْقَى عِنْدَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يَرِيدُهُمْ بِأَلَّا ذَكَرَ عَمَلٍ يَعْرِفُونَهُ بِهِ وَمِثْلُ هَذَا يَنْظُرُ أَنْ كَانَتْ لَهُ خُصْلَةٌ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ خِصَالِ الْبِرِّ فَنَسَبُوهُ إِلَيْهَا وَيُظَنُّونَ أَنَّهُ صَاحِبُهَا غَلَطًا مِنْهُمْ بِمَا وَجْهَالَةُ فِكْرِهِ أَنْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ أَوْ يَطْلَعُوا عَلَيْهِ وَكَرِهَ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَنْ يَعْمَلُ بِتِلْكَ الْخُصْلَةِ أَوْ لَهُ عَمَلٌ مِنَ الْبِرِّ وَعِنْدَ النَّاسِ أَنْ مَا يَعْمَلُهُ مِنَ الْبِرِّ أَكْثَرَ فَيُكْرَهُ أَنْ يَطْلُعَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَا يَعْأُ بِمَحَبَّةِ نَفْسِهِ عِنْدَ الَّذِي يَعْمَلُ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ فَإِنَّهُ مِمَّنْ يَحِبُّ أَنْ يَحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ

(1/101)

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ يَحِبُّ أَنْ يَحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ وَلَا يَحِبُّ أَنْ يَحْمَدَ بِمَا قَدْ فَعَلَ حَتَّى يَجْهَمَا جَمِيعًا كَذَلِكَ أَنْ صَحَبَ رَجُلًا مَعْرُوفًا بِالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ عِنْدَ النَّاسِ أَوْ لَهُ سَبَبٌ قَدْ نَالَ بِهِ ذِكْرًا مِنْ غَيْرِهِ فِكْرُهُ أَنْ يَسْقُطَ ذَلِكَ عِنْدَ النَّاسِ وَلَمْ يَعْأُ بِمَحَبَّةِ نَفْسِهِ عِنْدَمَا يَعْمَلُ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ فَإِنَّهُ مِمَّنْ يَحِبُّ أَنْ

يحمد بانتسابه الى غيره وَلَا يُمكن ان يجب الذّكر بِعَمَلٍ غَيْرِهِ وَلَا يجب ان يذكر بِعَمَلٍ نَفْسِهِ الَّذِي يَعْمَلُهُ
حَتَّى يَجْهَمَا جَمِيعًا فَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ صَادِقَةً عَلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهَا فِيهِ الصَّدَقُ فَأَرْجُو أَنْ
يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

(1/102)

الْيَقِينِ وَالْعَزْ

صدق اليقين
واما اليقين فعند العمل والصدق فيه مُشَاهِدَةٌ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فَلَيْسَ بِكَثْرَةِ النَّفَقَةِ وَلَا بِكَثْرَةِ الْكَلَامِ
وَلَا يَخْتِاجُ فِيهِ إِلَى تَحْرِيكِ الشَّفَتَيْنِ وَلَكِنْ بِالْإِيمَانِ وَبِالْعَقْلِ وَبِالْمَعْرِفَةِ وَحَسَنَ التَّدْبِيرِ فِي ظَاهِرِ أَمْرِ الْعَبْدِ
وَبِاطْنِهِ
فتعرف الصدق وتعرف ضده من الكذب وتعرف الخير وتعرف ضده من الشر فتعمل في اثبات
الصدق ونفي ضده وتعلم الاصل من الفرع فيكون الشغل في اثبات الصدق من وجه الاصل وانتفاء
ضده من وجه الاصل فإن الاصل يأتى على الفروع
وما دام العبد يشتغل بالفرع عن الاصل فلنيس لشغله فناء ما دام الاصل ثابتا كلما ذهب فرع
اخلف فرعا آخر بدله

(1/103)

العز في النفس أصل مرض القلوب
وحب العز أصل ومنه مخرج حب الرئاسة والجاه عند الناس ومنه الكبر والفخر ومنه الغضب والحسد
ومنه الحقد والحمية والعصبية والنفس عاشقة له وهو قرة عينها وهو أحب اليها من أم واحد لواحد
وبلغني انه آخر ما يبقى في قلوب تاركي الدنيا للآخرة وذلك لصعوبة تمكنه من النفس
فألعمل الصالح من غير المريد المستحكم من أهل القراءة سلاحه الذي يقوى به سلطانه هو العز في
النفس والفخر بالعمل والازراء على الناس
وقد رأينا من يعمل أعمال الصالحين من الصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وعزه في نفسه زائد
نعم وقد رأينا من يتواضع لطمع زيادة في العز
ولا أعلم أي رأيت احدا من أهل التسك خاليا منه يعني من العز
فإن كان يجد بقاء حلاوة طعمه لم يفلح معها عبدا كان أو زاهدا
وكيف يكون زاهدا والزهد لا يأوي معه في مأوى واحد

(1/104)

فَمَنْ عَالَجَ نَفِي الْعِزِّ مِنْ نَفْسِهِ وَوَفَّقَهُ اللَّهُ لِذَلِكَ فَنَالَتْ فِيهِ سَهْلٌ عَلَيْهِ الْمَسِيرُ فِي طَرِيقَةِ مَحَبَّةِ اللَّهِ عِزِّ وَجَلَّ وَمَحَبَّةِ الْإِيمَانِ وَسَبِيلِ الْإِسْتِقَامَةِ وَمَدَارِجِ الصَّالِحِينَ وَهَانَ عَلَيْهِ مَعَالِجَةُ الصَّدَقِ فِي عَمَلِهِ وَاطْمَأْنَنَتْ نَفْسُهُ إِلَى التَّذَلُّلِ وَالتَّوَاضُّعِ وَطَابَ لَهُ طَرِيقُ الْعَدْلِ

لأنه لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العِزُّ ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العِزُّ ولا يقدر على قبول الحق وفيه العِزُّ ولا يقدر على التَّوَاضُّع الَّذِي هُوَ شَرَفُ التَّقْوَى وَحَلِيتُهَا فِيهِ الْعِزُّ وَلَا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العِزُّ ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العِزُّ ولا يقدر على ترك الحق وفيه العِزُّ ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العِزُّ ولا يقدر على سلامة القلب وفيه العِزُّ ولا يقدر على النصيح وفيه العِزُّ ولا يسلم من الأرزاء على الناس وفيه العِزُّ

فَمَا أَكْثَرَ ضَرَرَهُ وَأَعْظَمَ فَسَادَهُ وَظَهَرَ أَمْرُهُ وَأَقْلَ رَشْدَهُ وَابْيَنَ غِيهِ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ وَمَا أَغْفَلَ النَّاسُ عَنْهُ وَأَقْلَ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَاشَدَّ مَتَابَعَتُهُمْ لَهُ

فَاهْوَى حَكْمَهُ وَالْكِبَرَ أَخُوهُ وَعَضَدَهُ وَالْجُورَ سِيرَتَهُ وَالْغَضَبَ سُلْطَانَهُ وَالرِّيَاءَ عَوْنَ مَنْ أَعْوَانَهُ لَهُ يَكْسِبُ وَالِيَهُ يُؤَدِّي وَالْعَجَبُ أضعف عون له والحسد أمير جُنُودِهِ وَالْغُلَّ صَاحِبُ مَشُورَتِهِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكِبَرُ وَالْحَسَدُ يَأْكُلَانِ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْخُطْبَ وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْغُلَّ وَالْحَسَدَ

(1/105)

الْعِزُّ عَامٌّ فِي الْخَلْقِ وَخَاصٌّ فِي الْقُرَّاءِ

وَالْعِزُّ فِي الْخَلْقِ عَامٌّ فِي الْعَبِيدِ وَالْأَمَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ وَالضُّعَفَاءِ وَالْأَقْوِيَاءِ وَالْقُرَّاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَظْهَرُ مِنْهُ عَلَى قَدَرٍ مَا يُمَكِّنُهُ أَظْهَارُهُ وَمَنْ لَمْ يُمَكِّنْهُ الْأَظْهَارُ عَامِلُ النَّاسِ بِهِ سِرًا فِي نَفْسِهِ لَأَنَّهُ مَا دَامَ فِي الْإِنْسَانِ لَا يَتْرَكَ حَظَّهُ مِنْهُ سِرًا وَلَا عَلَانِيَةً

أَمَّا تَرَاهُ كَيْفَ يَتَغَيِّظُ فِي نَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ وَكَيْفَ يَحْسَدُهُ وَيَدُورُ حَوْلَهُ يَطْلُبُ عَوْرَاتِهِ وَكَيْفَ يَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ الْهَوَى

وَلَوْ مَلَكَ مِنْ ذَلِكَ فِي الظَّاهِرِ مَا مَلَكَ فِي الْبَاطِنِ لِأَظْهَرِ مَثَلِ الَّذِي أَضْمَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْبَاطِنِ وَاقْبَحِ أَمْرُهُ وَأَفْسَدَهُ لَهُ وَاشَدَّهُ فَضِيحَةً إِذَا كَانَ فِي الْقَارِيءِ لَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَتَعَزَّزُ عَلَى غَيْرِهِ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَّا بِأَسْبَابِ الدِّينِ وَالْأَرَأَيْتَ فِيهِ أَثَرُ ذَلِكَ

فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا يَلْقَى الْقُرَّاءُ خَاصَّةً مِنَ الْعِزِّ وَمَنْ أَعْوَانَهُ

يَدْلُكُ عَلَى ذَلِكَ سُرْعَةُ حَقْدِهِمْ وَكَثْرَةُ غَضَبِهِمْ لَا نَفْسَهُمْ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْزَازِ لَهَا وَمَا يَجِدُونَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ مِمَّا لَا خَطَرَ لَهُ وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ دَاءِ الْعِزِّ وَحَرَكَتِهِ أَمْرٌ لَمْ يَجْزِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَلَا لِلْمَلَائِكَةِ وَلَا لِلنَّبِيِّينَ يُرِيدُ الْقَارِيءُ أَنْ يَجُوزَهُ لِنَفْسِهِ وَإِنْ يَجْعَلُهُ فَوْقَ رَأْسِهِ

وَأَمَّا كَانَ يَنْبَغِي لِلصَادِقِ فِي قِرَاءَتِهِ الْعَمَلُ فِي إِطْفَاءِ الْعِزِّ مِنْ قَلْبِهِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ وَإِنْ يَجْعَلُهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ
وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا صَلَّى الْغَدَاةَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ وَاصْلَحَ خُصْلَةً مِنْ خِصَالِ الْعِزِّ لَيْسَ الْعِزُّ كُلُّهُ وَآخِرُ
تَصَدِّقٍ بِوِزْنِ نَفْسِهِ ذَهَبًا عَلَى أَكْبَادِ جَائِعَةٍ مِنْ وَجْهِ طَيْبٍ لَكَانَ الْأَوَّلُ أَغْبَطَ وَكَانَتْ النِّعْمَةُ عَلَيْهِ أَكْبَرَ
وَالشُّكْرُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ
فَكَيْفَ إِذَا أَصْبَحَ وَهُوَ لَمْ تَكُنْ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الْعِنَايَةُ بِالْعِزِّ لِنَفْسِهِ لِتَجْرِبَتِهِ لَهُ وَمَعْرِفَتِهِ لَهُ
وَآخِرُ أَصْبَحَ وَلَمْ تَكُنْ هِمَّتُهُ وَلَا مَحَبَّتُهُ إِلَّا الْعِنَايَةُ بِنَفْيِ الْعِزِّ مِنْ قَلْبِهِ وَلُزُومِ التَّوَاضُّعِ وَذِلِّ النَّفْسِ لِتَجْرِبَتِهِ
لِنُورِ التَّوَاضُّعِ وَمَعْرِفَتِهِ بِفَوَائِدِهِ
فَهَيْئَتَا مَنْ شَغَلَهُ مِثْلُ شُغْلِهِ مَا أَنْفَعَهُ مِنْ شُغْلٍ وَارِضَاهُ عِنْدَ مَلِكِهِ وَارُوحِهِ لِلْقَلْبِ
فَاعْتَبِرْ بِرَجُلَيْنِ أَمْرًا بِالْعِبُودِيَّةِ وَاحِدَهُمَا أَحَبُّ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ عَبْدًا كَمَا أَمَرَ وَاحِدُ الْآخَرِ أَنْ يَجْعَلَ
نَفْسَهُ مَلِكًا أَيُّ هَذَيْنِ أَوْلَى بِالْجَائِزَةِ مِنَ الْمَوْلَى وَابْتِغَاءِ الْعُقُوبَةِ الْمَوْجِعَةِ
وَسَائِلِ عِلَاجِ الْعِزِّ

قُلْتُ قَدْ وَصَفْتَ مِنْ فَسَادِ الْعِزِّ وَضُرَرِهِ وَشَرِّهِ مَا قَدْ وَصَفْتَ فَصَفْ

لِي طَرِيقَ التَّحَرُّزِ وَالْإِمْتِنَاعِ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَرِيضَ إِذَا عَرَفَ دَاءَهُ أَحَبُّ أَنْ يَعْرِفَ دَوَاءَهُ وَهَكَذَا مِنْ أَحَبِّ
أَنْ يَعْرِفَ عَيْبَ نَفْسِهِ يَحِبُّ أَنْ يَعْرِفَ الَّذِي يَصْلَحُ بِهِ عَيْبِهِ
فَقَالَ إِنَّ ابْنَ آدَمَ تَكَلَّفَ نَزُولَ الطَّيْرِ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ فَأَنْزَلَهُ
وَتَكَلَّفَ خُرُوجَ الْحُوتِ مِنْ قَعْرِ الْبَحْرِ فَأَخْرَجَهُ
وَتَكَلَّفَ إِخْرَاجَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مِنْ بَطْنِ الْأَرْضِ فَأَخْرَجَهَا
وَتَكَلَّفَ اخْتِذَاكَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْوَحُوشِ وَالسَّبَاعِ مِنَ الْبَرِّ وَالْغِيَاظِ فَأَخَذَهَا وَذَلَّلَهَا وَسَخَّرَهَا
وَتَكَلَّفَ اخْتِذَاكَ الْأَفَاعِي وَالْحَيَاتِ فَأَخَذَهَا
وَتَكَلَّفَ مَعَالَجَةَ الشَّيَاطِينِ فَعَالَجَهَا
وَتَكَلَّفَ مَعْرِفَةَ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ وَأَسْمَاءَهَا وَمَجَارِيهَا وَمَطَالِعَهَا وَمَغَارِبَهَا وَتَكَلَّفَ مَنَازِلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
وَمَجَارِيهِمَا وَمَطَالِعَهُمَا وَمَغَارِبَهُمَا
وَتَكَلَّفَ مَعْرِفَةَ الْوُلَدِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَبِيهِ فَعَرَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمَّا تَكَلَّفَهُ
وَتَكَلَّفَ مَرَضَ الْمَرِيضِ وَأَسْبَابَ عِلَلِهِ بِالنَّظَرِ إِلَى بَوْلِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَعَرَفَ دَاءَهُ وَعَرَفَ دَوَاءَهُ
فَعَرَفَ كُلَّ ذَلِكَ
وَتَكَلَّفَ تَعْلَمَ سِيرَ الْمُلُوكِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولَى فَكَتَبَهَا وَدَرَسَهَا

وكل ما تكلف من ذلك فإمّا حمل نفسه على تكلفه لطلب الزيادة من الدنيا وليس في هذا من امر دينه الذي كلفه شيء

(1/108)

وكلف تقويم نفس واحدة فلم يقدّر بتقويمها وليس عليه من فساد غيرها شيء لم يكلف إلا بإصلاح فساد نفسه وحدها فلم يقدّر بإصلاح فسادها فجعل بعض الصلاح وعلم بعضاً فما جهل فهو جاهل به لا يتكلف علمه وما علمه من فسادها فهو مضيع لصلاحه ولم يكلف أخذ أن يصوم ولا يصلي ولا يزكي ولا يحج ولا يتوضأ ولا يغتسل عن أخذ أنما كلف نفسه ليس لأخذ من صلاح أخذ شيئاً وإنما صلاح كل امرئ وتقواه لنفسه وفي ميزانه ليس في ميزان غيره منه شيء

وهكذا التّيه في الاعمال لا تنفع نيتي عمّلك ولا تنفع نيتك عملي إذا كانت صحيحة ولا تضره إذا كانت سقيمة وإنما المنفعة والمضرة على صاحب التّيه وصاحب العمل وإنما هي نفس واحدة فإذا صار إلى أمر نفيسه لم يعرف خيرا من شرها ولا اقبالها من ادبارها يعمل الخير فلا يدري مقبل هو فيه أم مدبر الا بظاهر العمل والدّعوى ولا يدري أي شيء يعمل له الدنيا أو للآخرة ليس يميز بين الأمرين ولا يفاتش المهمة فيه والمحبة له ولا الخشية فيه ولا يتوقف ولا يحسن أن يطالع ضميره فهو يفسد الخير بالشر ولا يشعر هو في ظاهرة مقبل وهو في باطنه مدبر وهو في ظاهره آبق إلى الله وهو في باطنه آبق من الله فسبحان الله ماذا تكلف المسكين من معرفة ما لم يكلف فشغل

(1/109)

عنايته فيه وشغل فهمه به وأما الذي جهل فضيع من معرفته فهو ما قد كلف وأخذ عليه فيه المواثيق يدخل عليه الشر والفساد فلا يدري من أين دخل وإلى أين اتاه وكيف هو وما السبيل إلى التخلص منه فبقي عند ذلك تائها حيران وقد عاج ما في الهواء وما في قعر البحار فعرفه لما شغل عنايته به لمعنى دنياه الذي قد تكفل الله له منها بما قدر له وضمن له الوفاء بما أقبل عليها أو أدبر عنها فغلب المسكين الخلق وغلبته نفسه ولو عني بمعرفة فساد نفسه وصلاحها وخيرها وشرها وخاف التلف عليها كما عني بمعرفة ما ذكرنا من أمر دنياه المضمونة له لعرف من فسادها وصلاحها مثل ما عرف من ذلك وقدر منه على ما قدر من ذلك ولكنه رضي أن يسلك طريق الدين بالجهالة ولم يرض أن يسلك طريق الدنيا إلا بعلم وبصيرة ومتى شئت رأيته في طريق الدنيا وهو يحسب أنه في طريق الآخرة

ومع ذلك فإن بعض المدبرين عن الله تعالى المعرضين عنه قد تسموا علماء ونصبوا أنفسهم للدلالة على الله وهم حيارى متصنعة مدخولون متشبهة يحسبهم الجاهل أدلاء وهم عمى حيارى فإن الله وإنّا

إِلَيْهِ رَاجِعُونَ
وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِزَّ وَالْتِعَزُّزَ لَيْسَ بِغَائِبٍ قَادِمٍ عَلَيْكَ فَتَرِيدَ التَّحَرُّزَ مِنْهُ وَالامْتِنَاعَ

(1/110)

عَلَيْهِ وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ قَدْ حَلَّ بِكَ وَنَزَلَ وَتَمَكَّنَ مِنَ الْمَنْزِلِ وَاسْتَوَى وَجَلَسَ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ وَأَخَذَ مِنْكَ خَيْرَكَ وَغَلَبَ أَخِيرَ مَوْضِعٍ فِيكَ وَاتَّكَأَ عَلَى مَتْنِكَ وَاسْتَعْدَمَ أَعْوَانَهُ بِمَا يُؤَافِقُ هَوَاهُ فِي أَقْبَالِهِمْ وَادْبَارِهِمْ وَلَا أَكْثَرَ عَلَيْكَ مِنْ صِفَاتِ فُرُوعِ دَوَائِهِ فَتَمَلَّ وَتَعَرَّضَ وَلَكِنْ ادْلِكْ عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي إِذَا عَاجَلْتَهُ أَتَى عَلَى الْأَعْصَانِ كُلِّهَا وَهُوَ الْإِيَّاسُ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ أَنْ يَضُرُّوا أَوْ يَنْفَعُوا أَوْ يُعْطُوا أَوْ يَمْنَعُوا أَوْ يَحْيُوا أَوْ يَمِيتُوا فَالْزِمْهُ قَلْبُكَ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْأَصُولِ وَرَأْسُ الْأَمْرِ وَسَنَامُهُ فَإِنْ كُنْتَ مَرِيدًا صَادِقًا تَحِبُّ النَّظَرَ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فَأَغْلِقْ عَلَى نَفْسِكَ بَابَ الطَّمَعِ وَافْتَحْ لَهَا بَابَ الْإِيَّاسِ وَانْفَرِدْ لَذَلِكَ بِإِرَادَتِكَ كُلِّهَا وَتَجَرَّدْ فِي طَلَبِهِ كَالَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا كُلِّهَا إِلَّا حَاجَةٌ وَاحِدَةٌ

وَتَعَزِّمْ عَزْمًا صَاحِحًا عَلَى أَنْ تَهْبِ نَفْسَكَ لِلَّهِ فِي بَقِيَّةِ عَمْرِكَ إِنْ كُنْتَ تَرَاهُ لَذَلِكَ أَهْلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَغْنَاهُ عَنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَأَهْلِ الْأَرْضِينَ وَمَا أَشَدَّ اضْطِرَّارَهُمْ إِلَيْهِ فَاجْعَلْ يَا أَخِي نَفْسَكَ كَهَيْئَةِ الْأَسِيرِ فِي أَيْدِي أَهْلِ زَمَانِكَ أَيَّامَ حَيَاتِكَ فِي اتِّبَاعِ مَرْضَاةِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَالتَّخَلُّصِ مِنْ بَلِيَّةِ الْعِزِّ فَإِنَّ الْأَسِيرَ تَمْلُوكُ لَا يَمْلِكُ وَلَا يَطْمَعُ إِنْ يَظْلَمُ أَحَدًا وَلَا يَنْتَصِرُ مِنْ ظَالِمٍ ثُمَّ تَجِدُ حَلَاوَةَ طَعْمِ ذِكْرِ اللَّهِ وَلَذَاذَةَ الْمُنَاجَاةِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَإِنَّمَا قُلْتَ لَكَ اسْتِخْرَاجُ الْعِزِّ وَقَطْعُهُ عَنْ قَلْبِكَ بِالْإِيَّاسِ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّهُ يَرُدُّكَ إِلَى اللَّهِ وَرَجُوعَكَ إِلَى اللَّهِ سَكُونُ قَلْبِكَ عَلَيْهِ وَفِي سَكُونِ قَلْبِكَ

(1/111)

عَلَيْهِ الْإِزْدِيَادُ مِنْ طَاعَتِهِ وَالْوُصُولُ إِلَى خَاصِيَةِ عِبَادَتِهِ وَفِي الْوُصُولِ إِلَى خَاصِيَةِ عِبَادَتِهِ التُّزُولُ عِنْدَ دَرَجَةِ الْعَبِيدِ وَفِي التُّزُولِ عِنْدَ دَرَجَةِ الْعَبِيدِ أَصَابَةُ شَرَفِ الْعُبُودِيَّةِ وَمِنْ أَصَابَةِ شَرَفِ الْعُبُودِيَّةِ اكْتِسَابُ الْقَلْبِ الْمَذَلَّةِ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ فَاعْزِكْ بِطَاعَتِهِ وَخَضَعْتَ لَهُ فَشَرَفَكَ بِعِبَادَتِهِ قَالَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} وَقَالَ فِي الْمَذْمُومِ مِنَ الْعِزِّ {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا}

قُلْتَ وَكَيْفَ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْعَزِيزِ

قَالَ أَمَّا الْمَذْمُومُ مِنْهُمَا فَيَنْبَغُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ مِنْهُمَا يَزِيدُكَ تَذَلُّلًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْرَ إِذَا انْتَهَى فِي الضِّيقِ اتَّسَعَ وَمَا هُوَ إِلَّا قَطْعُ الطَّمَعِ وَاسْتِعْمَالُ الْإِيَّاسِ فَإِذَا أَنْتَ قَدْ صَرْتَ فِي وَادِي الرُّوحِ وَالرَّاحَةِ وَالْفَرَحِ فَتَنْتَعِمُ مَعَ أَهْلِ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ بِذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّلَذُّذِ بِحَلَاوَةِ الْمُنَاجَاةِ وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَتِهِ ذُقْتَ حَلَاوَةَ الْيَقِينِ وَفَرَحَ الرِّضَا وَرَاحَةَ التَّفْوِيزِ وَخَفَةَ مَحْمَلُهُ ثُمَّ صَرْتَ

تنظر الى من يتعذب ويجول في سُلْطَانِ الْعِزِّ وَمَلِكِهِ
فهنيئاً لك حينئذ تصبح وتمسي ليس لك هم ولا حزن الا فيما انت

(1/112)

وَارِدَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِكَ وَاللَّهُ يَنْظُرُ إِلَى هِمَّتِكَ وَارَادَتِكَ فِي وَادِ النَّاسِ فِي وَادِ غَيْرِهِ
فقه التجارب والعناية بالنفس

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِنَايَةِ بِنَفْسِهِ وَرَزَقَ فَهَمَّ التَّجَرُّبَةِ بَلَّغَ مَعْرِفَةَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَعَرَفَ مِنْ أَيْنَ
وَكَيْفَ وَعَبَّرَ وَوَصَفَ وَفَهَّمُ وَفُطِنَ وَنُطِقَ بِالْحِكْمَةِ وَكَانَ مَا يَسْمَعُ مِنَ الْمَوْعِظَةِ زِيَادَةً لَهُ فِي فَهْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ
وَوَصَفَهُ وَدَقَائِقَ فُطْنَتِهِ وَسِرَّ حَاجَتِهِ
وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِنَايَةِ وَلَمْ يَرْزُقْ فَهَمَّ التَّجَرُّبَةِ عَرَفَ مِنْ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ عَلَى قَدَرِ عِنَايَتِهِ وَوَصَفَ
عَنْ صِفَتِهَا وَعِبَارَتِهَا وَمِنْ أَيْنَ وَكَيْفَ وَضَعَفَ عَنِ النَّطْقِ بِالْحِكْمَةِ وَكَانَتْ الْمَوْعِظَةُ زِيَادَةً لَهُ فِي مَعْرِفَةِ
خَيْرِهِ وَشَرِّهِ
وَمَنْ لَمْ يَرْزُقْ الْفَهْمَ وَلَيْسَتْ لَهُ عِنَايَةٌ فَهُوَ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ عِنْدَ الْكَلَامِ وَلَا يَعْقِلُ بِقَلْبِهِ عِنْدَ السَّمْعِ
وَيُرَوِّى أَنَّ الْحِكْمَةَ تَقُولُ مِنْ طَلْبِي فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيَّ فَلْيَعْمَلْ بِأَحْسَنَ مَا يَعْلَمُ وَلِيَدْعُ أَشْرَ مَا يَعْلَمُ
وَقَالَ الْأُمُورَ مَنَافِعُهَا مُتَفَاوِتَةٌ وَضُرُرُهَا مُتَفَاوِتَةٌ فَمَنْفَعَةٌ بَعْضُهَا

(1/113)

أَكْثَرُ مِنْ بَعْضٍ وَضُرَرُ بَعْضِهَا أَكْثَرُ مِنْ بَعْضٍ وَنَجِدُ أَكْثَرَ النَّاسِ أَمَّا عِنَايَتُهُمْ بِإِصْلَاحِ مَا هُوَ أَقْلُ ضَرَرًا
فَهُمْ فِي إِصْلَاحِ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ إِصْلَاحِ مَا هُوَ أَكْثَرُ ضَرَرًا وَطَلَبُهُمْ لِمَا هُوَ أَقْلُ مَنَفَعَةٍ أَكْثَرُ مِنْ طَلَبِهِمْ لِمَا
هُوَ أَكْثَرُ مَنَفَعَةٍ
وَبَعْضُ الْأُمُورِ تَرْكُهَا أَشَدُّ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ بَعْضِ وَصَاحِبِ الْإِرَادَةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْلُطَ فِي هَذَا وَلَكِنْ
يَفْتَشُ أُمُورَهُ كُلَّهَا مِفَاتِيحَ شَدِيدَةٍ بِالْعِنَايَةِ وَغَائِصَ الْفَهْمِ وَدَقَائِقَ لَطَائِفِ الْفُطْنِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا هُوَ أَشَدُّ
عَلَيْهِ فِي التَّرْكِ وَيَعْلَمَ مَا هُوَ أَسْلَمُ لَهُ وَانْفَعُ لَهُ فَيَجْعَلُ جَدَّهُ وَجَدِيدَهُ وَمَعْرِفَتَهُ وَعِلْمَهُ وَفَهْمَهُ وَكِبَاسَتَهُ
وَعِنَايَتَهُ وَفُطْنَتَهُ فِيمَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِ فِي التَّرْكِ وَأَكْثَرُ ضَرَرًا عَلَيْهِ
وَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ مُخْتَلِفُونَ قَرِبَ رَجُلٌ يَهُونَ عَلَيْهِ تَرْكُ شَيْءٍ يَشْتَدُّ عَلَى غَيْرِهِ وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ تَرْكُ شَيْءٍ
يَهُونَ عَلَى غَيْرِهِ تَرْكُهُ وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ طَلَبُ مَا يَهُونَ عَلَى غَيْرِهِ وَيَهُونَ عَلَيْهِ طَلَبُ مَا يَشْتَدُّ عَلَى غَيْرِهِ لِأَنَّهُ
حَبَبَ إِلَى هَذَا مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا لَمْ يَجِبْ إِلَى غَيْرِهِ وَبَغِضَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا لَمْ يَبْغِضْ إِلَى غَيْرِهِ
وَرُبَّمَا كَانَ أَمْرَانِ ضَارَانِ كِلَاهُمَا وَاحِدُهُمَا أَكْثَرُ ضَرَرًا مِنَ الْآخَرِ وَمُؤْنَهُ تَرْكُهُ لَيْسَتْ بِأَشَدُّ عَلَى صَاحِبِهِ
مِنْ تَرْكِهِ الْآخَرِ وَلَكِنْ الْمَعْرِفَةُ تَقْصُرُ بِالْعَبْدِ عَنْ حَسَنِ الْمَأْخُذِ لَهُ وَالتَّرَفُّقُ فِيهِ فَهُوَ لِمَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِ
تَرْكُهُ وَأَقْلُ ضَرَرًا أَقْوَى وَاتْرَكَ لَهُ مِمَّا هُوَ أَكْثَرُ ضَرَرًا وَاهْوَنَ عَلَيْهِ تَرْكُهُ وَهُوَ عَنْ ذَلِكَ أَضْعَفُ وَأَعْجَزُ عَنْهُ

وَلَا يَعْرِفُ هَذَا إِلَّا مَنْ يَقْلِبُ الْأُمُورَ تَقْلِيلًا وَيَفَاتِشُهَا تَفْتِيشًا فَيَنْظُرُ هَذَا الَّذِي يُؤْتِي مِنْهُ مَا سَبَبَهُ ثُمَّ لَمْ يَرِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ السَّبَبِ كَبِيرٍ

(1/114)

مُؤَنَةً فَيَقُولُ لَا أَتْرُكُ هَذَا وَلَكِنْ أَتْرُكُ هَذَا الَّذِي يَشْتَدُّ عَلَى نَفْسِي تَرْكُهُ وَلَيْسَ فَسَادُ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ عَزِمَ عَلَى تَرْكِهِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِ كِفْسَادُ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يَعْزِمَ عَلَى تَرْكِهِ

(1/115)

الْغَفْلَةُ وَالْيَقِظَةُ

خَصَائِصُ الْغَفْلَةِ وَالْيَقِظَةِ

قُلْتُ فَمَا الَّذِي بَطَأَ بِالْخَاصَةِ وَالْعَامَةِ عَمَّا هُوَ أَكْثَرُ هُمْ ضَرَرًا وَأَشَدُّ عَلَيْهِمْ قَالَ قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّ النَّاسَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ قَرَبَ شَيْءٍ هُوَ اسْلَمَ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ وَرَبَّ شَيْءٍ هُوَ أَضَرَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآخَرِ
وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَعْرِفُ خَصْلَةَ أَكْثَرِ النَّاسِ وَلَا أَغْلِبَ عَلَيْهِمْ وَلَا أَكْثَرُ ضَرَرًا وَلَا أَشَدُّ عَلَيْهِمْ تَرْكًا عَلَى الْخَاصِّ وَالْعَامِّ وَالْعَالِمِ وَالْمُتَعَلِّمِ وَالْجَاهِلِ مِنَ الْغَفْلَةِ وَأَشَدُّ الْغَفْلَةِ الَّذِي أَنْتَ عَنْهُ غَافِلٌ وَبِهِ جَاهِلٌ وَأَشَدُّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَأَكْثَرُ عِنْدِي فِيهِمُ الْإِعْجَابُ

(1/116)

انْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَدًا هُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ جَاهِلٌ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ وَأَمْرِ الدُّنْيَا انْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَدًا يَتَعَرَّضُ لَشَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ وَلَيْسَ هُوَ حُرْفَتُهُ إِلَّا يَقُولُ أَنَا بِهِ عَالِمٌ وَأَمَّا أَتِي هَذَا الْجَاهِلُ الْمَغْتَرِّ الْمُدَّعِي لِعِلْمِ الْآخِرَةِ مِنْ قَلَّةِ قَدْرِ الْآخِرَةِ فِي قَلْبِهِ وَقَلَّةِ تَعْظِيمِ حُرَمَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَانْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَدًا عِنْدَ هَذَا الْغَافِلِ الْمَغْتَرِّ الْجَاهِلِ ارْفَعِ عِنْدَ نَفْسِهِ مِنْهُ وَأَعْلَمِ مِنْهُ فَيَقْرَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا مَا لَا يَجِدُ مِنْهُ بَدَأَ وَلَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ
قُلْتُ فَمَا الَّذِي تَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَصْلَحَ لَهُمْ وَأَنْفَعِ قَالَ التِّيْقِظُ أَصْلٌ كُلِّ خَيْرٍ كَمَا أَنَّ الْغَفْلَةَ أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ فَمَا أَكْثَرُ مَنْ يَكُونُ عِنْدَ نَفْسِهِ مَتِيْقِظًا وَهُوَ غَافِلٌ وَمَا أَحَبُّ إِلَيْهِ التَّغَافُلُ عَنِ التِّيْقِظِ وَآنَسَهُ بِالْغَفْلَةِ

وَاعْلَمْ ان أْبَيْنَ عَلاَمَاتِ التِّيْقَظِ اَلْهَمُّ وَالْحَزَنُ ثُمَّ حَسَنُ الاسْتِعْدَادِ لَمَّا اَهْتَمَّ لَهُ وَحْزَنَ عَلَيْهِ
وَابَيْنَ عَلاَمَاتِ الْغَفْلَةِ الْبَطَرُ وَالْمَرْحُ لَانَهُمَا يَسْهِيَانِ وَيَنْسِيَانِ التِّيْقَظَ وَفِي تَرْكِ التِّيْقَظِ تَرْكُ الاسْتِعْدَادِ لَمَّا
بَعْدَ الْمَوْتِ
قُلْتُ فَمَا التِّيْقَظُ وَمَا الْغَفْلَةُ

(1/117)

قَالَ التِّيْقَظُ تَقْرِيْبُ الْاَجْلِ وَمِرَاقِبَةُ الْمَوْتِ وَالْفَكْرُ فِيمَا يَصِيْرُ اِلَيْهِ الْعَبْدُ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ وَمِنْ هَذَا يَفْتَحُ
لَكَ بَابُ الْعَمَلِ فَتَبْتَدِرُ اِلَيْهِ قَبْلَ اَنْ يَتَبَدَّرَ اِلَيْكَ الْمَوْتُ وَتَسْتَغْنِمُ كُلَّ سَاعَةٍ مِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ انْقِصَاءِ
الْاَجْلِ

فَإِنْ رَزَقَ الْعَبْدُ الدَّوَامَ عَلَيْهِ نَبْعٌ مِنْ ذَلِكَ يَنْبِيعُ الْخَيْرِ اِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ
وَأَمَّا الْغَفْلَةُ فَطُولُ الْأَمَلِ وَنَسْيَانُ ذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَّا بِالْخَاطِرِ وَلَا يَدُومُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ
وَلَا يَدُومُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ إِلَّا رَمَى بِالْخَيْرِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَمِنْهَا يَتَوَلَّدُ التَّسْوِيفُ وَالْوُقُوعُ فِي بَحْرِ الْأَثَامِ
كَيْفَ تَكُونُ الْقُوَّةُ عَلَى الْيَقَظَةِ وَتَرْكُ الْغَفْلَةِ

قُلْتُ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ يَقْوِيْنِي عَلَى التِّيْقَظِ وَتَرْكِ الْغَفْلَةِ
قَالَ نَعَمْ اخْلَاصُ الدُّعَاءِ وَمَصَاحِبَةُ مَنْ يُرِيدُ مَا تُرِيدُ وَمِفَارِقَةُ مَنْ لَا يُرِيدُ مَا تُرِيدُ فَإِنْ صُحْبَةُ مَنْ لَا
يُرِيدُ مَا تُرِيدُ تَضُرُّكَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ وَصُحْبَةُ مَنْ يُرِيدُ مَا تُرِيدُ تَنْفَعُكَ وَلَا تَضُرُّكَ وَأَنْ كُنْتَ لَا تَشْعُرُ
وَأَمَّا النَّاسُ يُؤْتَوْنَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْغَلْبَةِ وَالْجَهَالَةِ وَرَبُّ رَجُلٍ تَجْتَمِعُ فِيهِ الثَّلَاثُ خِصَالٌ
وَأَنْ قُلْتُ إِنِّي لَا أَعْلَمُ مِنْ إِبْرَائِيْلَ مِنْهَا لَكُنْتُ صَادِقًا
وَقَالَ كُنْ مِمَّنْ يَحِبُّ عَلَى الْخَيْرِ وَيُحِبُّ عَلَيْهِ وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يُرِيدُ

(1/118)

أَنْ يَحِبُّ عَلَى الْخَيْرِ
وَقَالَ كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ نَفْعٌ وَلَا مَرْفَقٌ فَلَا تَمْكُنْ فِيهِ النَّيَّةَ وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ نَفْعٌ وَمَرْفَقٌ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِنِيَّةٍ
وَقَالَ عَجِبْتُ مِمَّنْ ضَعُفَتْ نِيَّتُهُ فِي حَسَنَاتِهِ وَصَحَّتْ نِيَّتُهُ فِي شَهَوَاتِهِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ إِلَّا مِنْ
الْمُخْدَوِعِينَ الْمَمُوهَ عَلَيْهِمْ أَوْ مِنَ الْخَادِعِينَ الْمَمُوهِينَ
وَقَالَ مَنْ صَحَّحَ خَصْلَتَيْنِ فَقَدْ اسْتَحْكَمَ أُمُورَهُ كُلَّهَا مَنْ صَحَّحَ لَمْ يَلَمْ يَقُولْ لَمْ يَلَمْ أَعْمَلْ وَلَمْ يَلَمْ عَمَلْتُ وَلَمْ
لَا أَعْمَلْ وَمَنْ ضَيَّعَ أَوْ جَهَلَ فَعَلَى حَسَبِ ذَلِكَ
وَقَالَ اعْزِلْ مِنْ اخْلَاقِكَ ثَمَانِي خِصَالٍ التَّكَلُّفُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْمِرَاءُ وَالْمَدَاهِنَةُ وَالْجَرِيرَةُ وَالْخُبْ
وَالْخَدَاعُ وَالْمِرَاحُ وَالتَّغْيِظُ

(1/119)

وَقَالَ التَّغافل عَمَّا يَكْره الله قسوة فِي القلب وَفِي قسوة القلب ذهاب حلاوة الاعمال وَفِي ذهاب حلاوة الاعمال قلة الطاعات وَفِي قلة الطاعات قلة الشُّكْر وَفِي ترك الشُّكْر فساد ما عملت وحرمان ما طلبت وَانْقِطَاع الزِّيَادَة
وَقَالَ انك فِي زَمَان اسَلَمَ النَّاس فِيهِ جَائِع مستوحش من النَّاس محزون مهموم
وَقَالَ الْجُوع يكسر النَّفْس والشَّبع يهيج البطر وَفِي الْجُوع قُوَّة الهم والحزن وَفِي الهم والحزن قُوَّة على الْجُوع والهم والحزن يَقْطَعَانِ الشَّهْوَة والرَّغْبَة
وَقَالَ الانسان محارف للتفريط مُعْتَاد للبغي شغوف بالتسويق مجبول على المَلَل والتَّسْيَان وَهُوَ مَوْصُوف بِعَدَمِ الْعَزْمِ مطبوع على الامل منعوت بالجزع عِنْد الشَّدَّة وبقلة الشُّكْر عِنْد النِّعْمَة مولوع بالانخداع والاعتزاز
وَقَالَ معرفتك بعيبك وعيب غَيْرِكَ سَوَاء فَمَنْ لم يعرف عيب غَيْرِهِ يعرف عيب نفسه فَإِذَا ظهر لك من عُيُوب النَّاس مَا خَفِيَ عَلَيْكَ من عيبك استدلت بعيوب النَّاس على عيبك واذا ظهر لك من عيبك مَا خَفِيَ عَلَيْكَ مثله من عُيُوب غَيْرِكَ فَالَا توقع ذَلِكَ بغيرك حَتَّى يَظْهَرَ لَكَ مِنْهُ مثل ما ظهر لك من نفسك وتجنس عَلَيْهَا وفاتشها وواقفها وحاسبها وخذها بِأَدَاء مَا عَلَيْهَا أَشَدَّ الاخذ وَلَا تَطْلُبَنَّ ذَلِكَ من غَيْرِهَا

(1/120)

فَإِذَا ظهر لك من غَيْرِهَا شَيْء فَأَمَكِن طلب العذر لَهُ فَأَطْلِبْهُ واما نفسك فَالَا تَطْلُبَنَّ لَهَا عذرا وان اعتذرت فَالَا تقبلن مِنْهَا
وَقَالَ اعمال البر كلها على وَجْهَيْنِ سر وَعَلَانِيَة فَمَنْ لم يقدر على تَصْحِيح السِّرِّ فِيمَا يَعْمَل من السِّرِّ كَانَ لِلتَّصْحِيحِ فِيمَا يَعْمَل من الْعَلَانِيَةِ ابعد وَمَنْ قوي على تَصْحِيحِهِ فِي الْعَلَانِيَةِ كَانَ فِيمَا يسر من أعماله أَقْوَى
وَهَكَذَا فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ من لم يقدر على تَصْحِيح النَّيَّةِ فِي الْقَلِيلِ من الْعَمَلِ كَانَ فِي الْكَثِيرِ مِنْهُ أَبْعَد
وَقَالَ الرِّيَاءُ على وَجْهَيْنِ رجل قد عمل اعمالا من البر فنال بِهَا ثَنَاءَ وَجَاهًا وَقَدْرًا وَهُوَ يُرِيدُ فِيمَا يَسْتَقْبَلُ من الاعمال الاخلاص فَمَنْ لم يقدر على ترك الرِّيَاءِ فِيمَا يَسْتَقْبَلُ كَانَ فِيمَا عمل ونال بِهِ الجاه والقدر والمحمدة من النَّاس من الاخلاص أَبْعَد
وَهَكَذَا فِي كل شَيْء ترك ما لم تملكه أيسر من ترك ما قد ملكته

(1/121)

النِّيَّةُ بَيْنَ الصَّدَقِ وَالْغَفْلَةِ

قُلْتُ فَمَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِصَدَقِ النِّيَّةِ
قَالَ أَشَدُّهُمْ لَهَا حُبًا
قُلْتُ فَمَنْ أَبْعَدُ النَّاسِ مِنْ صَدَقِ النِّيَّةِ
قَالَ أَزْهَدُهُمْ فِيهَا وَأَزْهَدُ الزَّاهِدِينَ فِيهَا أَنْسَاهُمْ لَهَا وَانْسَى النَّاسُ لَهَا أَجْهَلَهُمْ بِهَا
وَقَالَ أَوَّلُ عَلَامَاتِ الرِّيَاءِ رِضَا الرَّجُلِ بِجَهَالَةِ صَدَقِ النِّيَّةِ فِي أَعْمَالِهِ وَأَوَّلُ عَلَامَاتِ صَدَقِ الرَّجُلِ عُنَايَتُهُ بِمَعْرِفَةِ صَدَقِ النِّيَّةِ وَاخْلَاصِ الْعَمَلِ
وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ
وَقَالَ اخُوفُ مَا اخُوفَ عَلَيْكُمْ الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ
فَمَا بَالُ الْعَبْدِ يَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَعْمَلُ وَيَتَحَمَّلُ مُؤَنَةَ الْعَمَلِ فَيَعْمَلُ بِمَا قَدْ عَلِمَ وَلَا يَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَنْوِي فَيَتَعَلَّمُ
مِنَ الْعِلْمِ مَا يَعْمَلُ بِهِ وَمَا لَا يَعْمَلُ وَلَا يَتَعَلَّمُ صَدَقِ النِّيَّةِ لَا فِيمَا يَعْمَلُ بِهِ وَلَا فِيمَا لَا يَعْمَلُ
يَعِيشُ مَا عَاشَ وَيَمُوتُ إِذَا مَاتَ وَلَمْ يَنْتَبِهْ لِدَلِيلِكَ وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ بَعْدَهُ الْأَنْمَةُ وَاهِلُ
الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ يَحْذَرُونَ مِنَ الرِّيَاءِ حَتَّى أَنْ بَعْضُهُمْ قَالَ ادْخُلِ الْبَيْتَ الْمَظْلَمَ فَأُصْلِحْ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ لَعَلَّهَا
تَخْلُصَ لِي وَقَالَ الثَّوْرِيُّ مَا كُنْتُ أَعْتَدُ بِعَمَلٍ يَرَاهُ النَّاسُ

(1/122)

وَلَوْ كَتَبْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِثْلَ هَذَا لَاحْتَجْنَا إِلَى دِفَاتِرٍ
فَالَّذِي قَدْ عَرَفَ مِنَ الرِّيَاءِ مَا جَهَلَهُ غَيْرُهُ وَعَنِي بِهِ وَاهْتَمَّ لَهُ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ وَلَعَلَّ مَا يَخْدَعُ فِيهِ وَيَغْلِبُ
عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنَ الَّذِي يَصِيرُ إِلَى مَا يُرِيدُ مِنْهُ فَكَيْفَ بِالْجَاهِلِ بِهِ الْمَعْرُوضُ عَنْهُ

(1/123)

غُلُومُ النِّجَاةِ

جَمَاعٌ مَا يَجِبُ مِنَ الْعِلْمِ

وَثَلَاثَةُ أَبْوَابٍ مِنَ الْعِلْمِ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَعْرِفُوا مَا خَفِيَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ بَابَانِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى
وَبَابٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ
فَأَمَّا الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ فَالْنَّصِيحَةُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدِّينُ النَّصِيحَةُ فِيمَا خَفِيَ مِنَ
الْأَشْيَاءِ وَفِيمَا ظَهَرَ وَمَا قَلَّ وَمَا كَثُرَ لِلْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ وَالْعَدُوِّ وَالصَّدِيقِ

وَالَّذِي بَيْنَهُم وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى بَابُ النَّيَّةِ وَتَصْحِيحُهَا وَالْإِرَادَةُ فِي الْأَعْمَالِ فِيمَا خَفِيَ وَمَا ظَهَرَ وَمَا قَلَّ
وَمَا كَثُرَ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ
وَالْبَابُ الثَّانِي مَعْرِفَةُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ

(1/124)

حَقِيقَةُ النَّصِيحِ

وَأَمَّا بَابُ النَّصِيحِ فَتَكُونُ نِيَّتُهُ وَسِرِّيَّتُهُ وَمَذْهَبُهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ أَنَّ أُمُورَ الْأُمَّةِ كُلِّهَا لَوْ أُجْرِيتْ عَلَى
مَا فِي ضَمِيرِهِ وَسِرِّيَّتِهِ لَأَحْبَبَ أَهْلُهَا رَشْدَتِ أُمُورُهَا وَطَاعَتِ رَبِّهَا وَصَارَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَظُّهُ مِنَ
الْحَقِّ وَالْعَدْلِ
فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ سِرِّيَّتُهُ فِي خَاصَّتِهِ وَعَلَى هَذَا نِيَّتُهُ فِي الْعَامَّةِ رَجَوْتُ أَنَّهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ جَلِيلٍ وَنِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ
لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى
وَأَنْ خَالَفَتْ سِرِّيَّتُهُ فِي خَاصَّتِهِ وَعَامَّتِهِ هَذَا الْوُصْفُ فَلَا حَظَّ لَهُ فِي النَّصِيحِ الْخَاصِّ وَلَا الْعَامِّ وَكَانَ مَا
يَدْعِي أَنَّهُ يَضْمُرُ وَيَنْوِي فِي سِرِّيَّتِهِ مِنْ نَصِيحِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ مُرَدُّوهُ عَلَيْهِ غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْهُ
وَلَا نَعْرِفُ فِي أَبْوَابِ الْعِلْمِ حَدِيثًا أَجْمَعَ فِي الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَهُوَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ الدِّينُ النَّصِيحَةُ وَلَا أَقْرَبُ وَلَا أَقْصَدُ قَصْدًا وَلَا أَحْسَنُ فِي أَعْمَالِ الْبَرِّ كُلِّهَا حَسَنًا وَلَا بِطَرِيقِ
الصَّالِحِينَ أَشَدَّ اتِّبَاعًا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَلَا أَحْوَطُ فِي الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَلَا أَرْضَى عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَهُوَ
أَنْ تَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهُهُ لِلنَّاسِ مَا تَكْرَهُهُ لَهَا
وَالنَّصِيحُ أَصْلُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَفُرُوعُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ فَرُبَّمَا أُجْرِيَ بِالْقَلْبِ وَلَرُبَّمَا لَمْ يَجْرِ إِلَّا
بِاللِّسَانِ وَرُبَّمَا لَمْ يَجْرِ إِلَّا بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ

(1/125)

آدَابُ لَا بُدَّ مِنْهَا

وَقَالَ إِنْ الشَّيْءُ يَغْلِبُ الشَّيْءَ وَالشَّيْءُ يَشْغُلُ عَنِ الشَّيْءِ وَالشَّيْءُ يَنْسِي الشَّيْءَ وَالشَّيْءُ يَهْيِجُ
الشَّيْءَ وَالشَّيْءُ يَزِيدُ الشَّيْءَ وَالْمَحَاسِبُ نَفْسَهُ قَدْ عَرَفَ هَذَا وَادْنَاهُ التِّيْقُظُ وَاعْلَاهُ النَّسْيَانُ
وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرَّ شَهْوَةٌ وَالْخَيْرُ كِرَاهِيَةٌ وَالشَّهْوَةُ سَابِقَةٌ عَلَى الْكِرَاهِيَةِ وَغَالِبَةٌ عَلَيْهَا حَتَّى يَجِيءَ الْعِلْمُ
وَالصِّدْقُ فَيُزِيلَانِ الشَّهْوَةَ وَيَجْعَلَانِ الْكِرَاهَةَ مَكَانَهَا فَمَنْ لَمْ يَفْقَهُ وَلَمْ يَفْهَمْ هَذَا حِينَ يَسْمَعُهُ لَمْ يُحْسِنْ
مُرَاجَعَةَ سِرِّيَّتِهِ وَلَا يَجِيءُ عَلَى إِصْلَاحِهَا حَتَّى يَتَعَلَّمَهُ مِمَّنْ يُحْسِنُهُ وَيُحْسِنُ وَصَفَهُ وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْقَوْلِ فِيهِ

لكتبناه
وَقَالَ نَعَمْ الصَّاحِبَانِ الْهَمُّ وَالْحُزْنُ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ وَنَعَمْ الشَّغْلُ

(1/126)

المحاسبة وصاحب الهم والحزن والمحاسبة يجعل الساعة التي ليس فيها هم ولا حزن ولا محاسبة ساعة
بطالة وقل قليل الغفلة عنده كأكثر الذنوب عند غيره
ومن علامة اليقين في العبد ادامة الحزن فيه
يا أخي ولو لم يحزن العبد الا لما يكون فيما يستقبل من الاعمال من الجفاء والسهو والغفلة وقلة
الصدق في فرضه ونافلته مثل الذي قد عمل ولما يجد فيها من قلة الحياء والمراقبة لكان جديراً ان
يحزن ويهتم
ولو لم يحزن ويهتم الا لانه لو جاء من الاعمال بمثل اعمال الملائكة والجن والانس والعالمين كلهم لم
يكن عنده علم في ذلك انه في المقبول او في المردود ولا يدري اقبل من ذلك كله مثقال ذرة او
يرد عليه لكان ينبغي له ان يحزن
ولو لم يحزن الا لانه لو قيل له اختر من عمرك أي ساعة شئت لم تعص الله فيها لسبب من الاسباب
لما كان يجد ذلك لقد كان ينبغي له ان يحزن
ولو لم يحزن الا لانه لو قيل له هل تعرف ساعة واحدة من عمرك ادبت الى الله سبحانه فيها جميع ما
اوجبه عليك كما اوجبه لقال ما اعرفها لقد كان ينبغي له ان يحزن
النفس واختبارها في المعرفة والسلوك

قلت كيف احاسب نفسي في معرفتها

(1/127)

قال ان الاشياء تعرف بالدلالات والعلامات والامثال وسأضرب لك في ذلك مثلاً يكون علماً لما
سألت عنه
ان مثل الناس في مجملتهم وفي تفرقهم بعد المعرفة بهم والخبرة لهم وتفاوتهم وتفاضلهم مثل سبط
موضوع في طريق فيه قوارير مملوءة موكاة الرؤوس يمر به الناس لا يدرون ما فيه فعرض له من الناس
عارض من المارة فقال لاكشفن عن هذا السبط فلا نظرن ما فيه فكشف عنه فرأى قوارير مملوءة لا
يدري ما فيها فحل او كيتهن كلهن فبدأ له من هذه رائحة المسك ومن هذه رائحة العنبر ومن هذه
رائحة البان ومن هذه رائحة الخلوف ومن هذه رائحة الغالية ومن هذه رائحة الياسمين ومن هذه رائحة
الورد وسائر الطيب والادهان
ومن هذه رائحة الكبريت ومن هذه رائحة النفط ومن هذه رائحة القطران وما لا طاقة له بالقيام

عِنْدَهَا مِنْ شِدَّةِ نَتَنِ رِيحِهَا
فَالنَّاسُ فِي جُمْلَتِهِمْ مِثْلَ السَّفْطِ وَالْقَوَارِيرِ وَهُمْ فِي مَعْرِفَتِهِمْ وَالْبَحْثِ عَنِ اخْلَاقِهِمْ مَتَفَرِّقُونَ عَلَى قَدْرِ
الْقَوَارِيرِ
وَمِثْلَ السَّفْطِ اَيْضًا فِي جُمْلَتِهِ مِثْلَكَ أَنْتَ وَحَدُكَ وَالْقَوَارِيرِ اخْلَاقُكَ وَأَدَابُكَ وَرِيحُهَا الطَّيِّبُ خَيْرُ
اخْلَاقِكَ وَأَدَابِكَ الْحَسَنَةُ الْمَرْغُوبُ فِيهَا وَالرَّائِحَةُ الْمُنْتَنَةُ شَرُّ اخْلَاقِكَ وَأَدَابِكَ السَّيِّئَةُ الْقَبِيحَةُ
وَلَا تَعْرِفِ النَّفْسَ حَتَّى تَمْتَحِنَ وَتُخْتَبِرَ
فَاخْتَبِرْ نَفْسَكَ حَتَّى تَعْلَمَ مَا فِيهَا وَإِنْ أَرَدْتَ ذَلِكَ فَعَامِلُهَا بِالْمُوَافَقَةِ لَهَا وَالْمُفَاتَشَةُ لِهَمَّتِهَا فِي وَقْتِ الْهَمَةِ
وَأَحَدُ إِلَيْهَا النَّظَرُ حَتَّى تَعْرِفَ حِلْمَكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَرَضَ لَكَ فِيهِ سَفِيهِ فُسْفِهِ عَلَيْكَ لَيْسَ فِي
الْوَقْتِ الَّذِي وَافَقَ هَوَاكَ

(1/128)

وَأَعْرِفْ تَوَاضِعَكَ فِي وَقْتِ مَا جَفَاكَ جَافٌ وَأَكْرَمَكَ مَكْرَمٌ فَإِنْ فِيهِمَا الْفِتْنَةُ فَإِنَّ الْعَبْدَ رُبَّمَا أَظْهَرَ
التَّوَاضُعَ عِنْدَ الْكِرَامَةِ لِيَزْدَادَ مِنْهَا وَرُبَّمَا تَوَاضَعَ عِنْدَ الْجُفَاءِ لِيُثَبِتَ لَهُ بِالتَّوَاضُعِ عِنْدَ ذَلِكَ مَنْزِلَةً بَيْنَ
النَّاسِ فَتَوَقَّفْ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَفَاتَشِ الْهَمَةَ
وَأَعْرِفْ صِمْتَكَ عِنْدَ الْخَوْفِ مِنْ سُقُوطِ جَاهِكَ عِنْدَ مَنْ لَكَ عِنْدَهُ الْجَاهُ وَالْقَدْرُ
وَأَعْرِفْ صَدَقَكَ عِنْدَ الْحَالَةِ الَّتِي يَتَصَنَعُ وَيَتَزَيَّنُ فِي مِثْلِهَا الْمُتَزَيِّنُونَ وَالْمُتَصَنِّعُونَ
وَأَعْرِفْ نَصْحَكَ عِنْدَ حُبِّكَ لِنَفْسِكَ وَلِصَدِيقِكَ وَعَدُوِّكَ حَتَّى تَعْلَمَ هَلْ تَحِبُّ لغيرِكَ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ أَمْ لَا
وَأَعْرِفْ صَبْرَكَ عِنْدَ تَرْكِ شَهْوَةٍ قَدْ مَلَكَهَا هَلْ تَسْتَطِيعُ تَرْكَهَا عَلَى ذَلِكَ أَمْ لَا
وَأَعْرِفْ وَرْعَكَ عِنْدَ الْحَالَةِ الَّتِي اسْتَمَكَّتْ مِنْهَا هَلْ تَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ عِنْدَهَا إِذَا التَبَسَتْ عَلَيْكَ أَمْ لَا

(1/129)

وَأَعْرِفْ عَقْلَكَ عِنْدَ تَرْكِ مَا لَا نَفْعَ لَكَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَلَا ثَوَابَ لَكَ فِيهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى
هَلْ تَسْتَطِيعُ تَرْكَ ذَلِكَ أَمْ لَا
وَأَعْرِفْ أَمَانَتَكَ عِنْدَ هَوَاكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَهْوَاهُ هَلْ تَضْبِطُ إِدَاءَ أَمَانَتِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَمْ لَا
وَأَعْرِفْ طَمَعَكَ فِي وَقْتِ هَيْجَانِ رَغْبَتِكَ هَلْ تَسْتَطِيعُ عِنْدَ ذَلِكَ الْإِيَّاسُ أَمْ لَا
فَإِنْ كُنْتَ فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ وَالْأَوْقَاتِ مُحْمُودًا فَمَا أَحْسَنَ خَيْرِكَ وَاحْمَدُ اللَّهَ وَاسْأَلْهُ الزِّيَادَةَ مِنْ فَضْلِهِ
وَامْضُ فَإِنَّكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِقَامَةِ وَطَرِيقِ الْمَحَبَّةِ وَمَحْجَةِ الْإِيمَانِ
وَإِنْ كُنْتَ فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ مَذْمُومًا فَأَخْلَاقُكَ وَسِيرَتُكَ أَوْلَى بِكَ أَنْ تَصْلَحَهَا فَإِنْ فِيكَ فَسَادًا عَظِيمًا
وَلَسْتَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِقَامَةِ وَلَا عَلَى طَرِيقِ الْمَحَبَّةِ وَلَا مُحْجَةِ الْإِيمَانِ
فَاتَّقِ اللَّهَ وَرَاجِعْ مِفَاتِشَةَ نَفْسِكَ وَاصْلَحْ فَسَادَهَا

قلت يَجِيءُ مني في بعض احوالي مَا امقت نَفْسِي عَلَيْهِ وتشتد عَلَيْهِ ندامتي
قَالَ مَقَّتَكَ لَهَا من معرفتك بِمَا وندامتكَ عَلَيْهِا دَوَاهُهَا فَإِذَا نظرت الى عَثْرَةٍ غَيْرِكَ فاذا ذكر عثرتك
ومقَّتَكَ لِنَفْسِكَ وَلَوْ ان مصلحة النَفْس ومنفعتُها كَانَتْ فِيمَا تهوى أَوْ تشتتهي لكَانَ النَّاسُ كلهم
صالحين وَلَكِنْ جعل صَلاَحَهَا فِيمَا تكره وفسادها فِيمَا تحب وتشتتهي

(1/130)

اما انها لَا تكره الصَّلاَح وَالْخَيْرَ وَلَكِنْ تكره الْمَكْرُوه الَّذِي بِهِ تنال الصَّلاَح وَالْخَيْرَ وَلَوْ امكنها دَرَجَةُ
الابرار بأعمال الفجار لقبليتها فَأَمَّا الشَّرَّ فَإِنَّهَا تحبه وتحب خصاله وطرائقه وكل شَيْءٍ مِنْهُ
وَمِنْ محاسبتك لَهَا ان تَخْلُو بِهَا وَتَرِدَ عَلَيْهِا فعالمها فَتَقُولُ يَا نَفْسُ انك لَا تقدرين ان تخادعي الله وَلَا
تغالبيه فَلَا تقبلي مخادعة الشَّيْطَانِ وَلَا مغالبتَه وَلَا تبتغي هَوَاكَ فِيرْدِيكَ ويهلكك
واني لست احملك على مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ وَلَا عِلْمَ لَكَ فِيهِ واني اراك تحب لِنَفْسِكَ مَا تمقت عَلَيْهِ
غَيْرَكَ وتكره لِنَفْسِكَ مَا تحب عَلَيْهِ غَيْرَكَ
قمة الخداع النَّفْسِيَّ وَحَقِيقَةَ التَّوَسُّلِ بِالصَّالِحِينَ

اراك تحب اهل التَّوَّاضُعِ والصدق والامانة حَتَّى لَوْ رَأَيْتَ قُبُورَهُمْ وآثَارَهُمْ لاحبتها فِيمَا تزعم وتكره
خصالهم الَّتِي بِهَا نالوا الْحَبَّ مِنْكَ حَتَّى لَوْ قدرت ان تكون في اعدى عدوك بعد ان تزول عَنْكَ لَكَانَ
ذَلِكَ منبتك

(1/131)

فَإِذَا ان تكون تُرِيدُ مخادعة الله اذ علمت انه يطلع مِنْكَ على ذَلِكَ واما ان تكون لَا تحسن ان تطلب
الْخَيْرَ
يَا أَخِي ان الجائع يحب الْخُبْزَ وان العطشان يحب الْمَاءَ وَلَوْ جعل الْخُبْزَ وَالْمَاءَ بَيْنَ ايديهما على مائدة
أَوْ علق فِي اعناقهما مَا نفعهما علمهما بِأَنَّ الْخُبْزَ وَالْمَاءَ مَعَهُمَا وَلَا ينفعهما قُرْبُهُمَا مِنْهُمَا دون ان
يَأْكُلَا مِنَ الطَّعَامِ ويشربَا مِنَ الشَّرَابِ
وَهَكَذَا انت لَا ينفعك علمك بِالْخَيْرِ وَلَا قربه مِنْكَ وَلَا حُبُّكَ لَهُ حَتَّى يَكُونَ فِيكَ وَتَكُونَ من اهله بل
لَا ازعم انك تحبه وَلَكِنَّكَ مخدوع أَوْ مخادع فِي دعواك انك تحبه
يَا أَخِي هَلْ رَأَيْتَ عطشان استمكن من الْمَاءِ الْبَارِدِ فَلَمْ يشربه الا مُدَّعٍ للعطش لَيْسَ بعطشان
أَوْ هَلْ رَأَيْتَ جوعان وجد طَعَامًا قد امكنه فَلَمْ يَأْكُلْهُ الا مُدَّعٍ للجوع لَيْسَ بجوعان
فَمَا ابين ابطال دعواك فِيمَا تزعم انك تحب الْخَيْرَ واهله اذا قست مَا تحب من الدُّنْيَا بِمَا تحب من
الْآخِرَةِ لَآني اراك اذا احببت شَيْئًا من الدُّنْيَا احببت الا يكون لَهُ مَالِكَ غَيْرَكَ هَذَا هُوَ الْحَبُّ الصَّادِقُ
بِعَيْنِهِ فَإِذَا احببت شَيْئًا من اعمال الصَّالِحِينَ فِيمَا تزعم فَلَيْسَ شَيْءٌ اثقل عَلَيْكَ من ان تكون انت

صاحبه وَلَوْ كُنْتَ مَحَبًّا لَهُ لَا حَبِيبَ إِلَّا يَكُونُ أَخْذُ سَبَقِكَ وَلَا يَمْلِكُ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِي تَمْلِكُ
يَا أَخِي أَمَا أَنْ لَكَ أَنْ تَمْلَ وَتَشْبَعَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْإِغْتِرَارِ بِاللَّهِ تَعَالَى أَمَا أَنْ لَكَ أَنْ تَحِبَّ أَنْ يَكُونَ
اسْمُكَ يَوْمًا وَاحِدًا مِنْ جَمِيعِ عَمْرِكَ مَعَ

(1/132)

أَسْمَاءُ الصَّالِحِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ الْمُخْلِصِينَ النَّاصِحِينَ الشَّاكِرِينَ الرَّاضِينَ الصَّابِرِينَ الْمُسْلِمِينَ الْوَاقِفِينَ
الْمُتَوَكِّلِينَ الْمُفَوِّضِينَ الْخَائِفِينَ الْمُشْتَاقِينَ الْعَارِفِينَ الْعَالِمِينَ الْمُوقِنِينَ
بِحَقِّ أَقْوَالِكَ لَوْ مَاتَ أَخْذُ مِنَ الْعَجَبِ كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَمُوتَ مَكَانَكَ إِذَا نَظَرْتَ فِيَمَا أَنْتَ فِيهِ
مِنْ إِثَارِكَ لِلدُّنْيَا وَأَقْبَالَكَ عَلَيْهَا مَعَ اسْتِيقَانِكَ بِأَنَّهَا لَا شَيْءَ وَرِضَاكَ بِتَرْكِ طَرِيقِ الصَّالِحِينَ وَاهْلِ الْخَيْرِ
وَصَحْبَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَجَاوِرَتِهِ فِي الْجَنَّةِ
فَلَوْ كَانَتْ صَحْبَتُهُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ تَرَكْتَ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَاتَّزَتْ صَحْبَتُهُ لَكَ أَنَّ الَّذِي تَرَكْتَ خَيْرًا عِنْدَ الَّذِي
نَلْتُ فَكَيْفَ الصُّحْبَةُ فِي الْجَنَّةِ مَعَ دَوَامِ الْمَلِكِ فِي جَوَارِ اللَّهِ وَجَوَارِ أَحِبَابِهِ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنِ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا فِي الْخَبَرَةِ وَالنَّعْمَةِ وَالسُّرُورِ الدَّائِمِ
الْأَبَدِيِّ

فَرَاغِ نَفْسِكَ يَا أَخِي وَأَنْظُرْ مَا فِي هَذِهِ الْمَخَادَعَةِ وَمَا الَّذِي قَدْ غَلَبَكَ وَغَلَبَ يَقِينَكَ أَوْ مَا هَذِهِ
الْخُدْعَةُ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَيْكَ
وَفَكِّرْ فِيَمَا تُصِيرُ إِلَيْهِ مِنْ مُوَازَنَةِ عَمَلِكَ وَسُؤَالِ اللَّهِ إِيَّاكَ عَنْ مَقَابِلِ الدَّرِّ وَالْخُرْدِلِ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ
وَدُونَ ذَلِكَ
وَفَكِّرْ فِي سُرْعَةِ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ وَعَلَيْكَ بِقَصْرِ الْأَمَلِ فَلَا تُفَارِقْهُ وَلَا يَفَارِقْكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ لَا فِي لَيْلٍ وَلَا
فِي نَهَارٍ
يَا سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ لَا تَدْهَشُ وَلَا يَذْهَبُ عَقْلُكَ تَعَجُّبًا مِنْ أَمْرِكَ
فَرَاغِ أَمْرِكَ وَأَنْظُرْ مَا يُرَادُ مِنْكَ فَإِنَّمَا يُرَادُ مِنْكَ إِذَا عَمِلْتَ

(1/133)

عَمَلًا أَنْ تُرِيدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ أَوْ لَا تَعْمَلْهُ فَهَلْ تَكُونُ أَقْلَ مِنْ هَذَا هَذَا فِي ذَوْفِكَ وَأَمَّا فَرَائِضُكَ فَإِنَّكَ
غَيْرُ مَعْدُورٍ فِي تَضْيِيعِ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْهَا حَتَّى تَعْمَلَ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ وَتَنْتَهِيَ عَمَّا نَهَيْتَ عَنْهُ وَمَا كَلَفْتَ أَمْرًا
لَا تُطِيقُهُ وَمَا كَلَفْتَ مَا لَمْ يُكَلَّفْ بِهِ غَيْرَكَ
وَيُرَادُ مِنْكَ مَعَ ذَلِكَ أَنْ تُرِيدَ لِلنَّاسِ الْخَيْرَ وَإِنْ لَمْ تَرُدْ هُمْ الْخَيْرَ فَلَا تَرُدْ هُمْ الشَّرَّ فَهَلْ تَكُونُ أَقْلَ مِنْ
هَذَا أَوْ تَرْضَى لِنَفْسِكَ أَنْ النَّاسَ يُرِيدُونَ لَكَ الْخَيْرَ وَأَنْتَ تُرِيدُ هُمْ الشَّرَّ
وَيُرَادُ مِنْكَ أَلَّا تَجْعَلَ نَفْسَكَ فَوْقَ النَّاسِ فِي نَفْسِكَ لَا بِقَلْبِكَ وَلَا بِلِسَانِكَ افْتَكُونَ أَقْلَ مِنْ هَذَا وَقَدْ
دَعَيْتَ أَنْتَ وَالنَّاسَ إِلَى هَذَا لَا أَنْتَ وَحْدَكَ

المخادعون المتاجرون بالدين

وَقَالَ اخبرني ان انت خالفت هذا الامر واردة بعملك غير الله واردة ان ترفع نفسك فوق الناس
أو لم تحب لهم ما تحب لنفسك اتدرك أو تنال ما تأمل من ذلك
اولست تعلم انك ابعد ما تكون من الله اذا كنت كذلك
ومع هذا لا اراك تطلب الدنانير والدراهم فتنتفع بها وترتفق بها في ايامك هذه وانما تطلب بذلك
الثناء والجاه والقدر وقد اخترت سيرة

(1/134)

تستوجب بها البغض من خالفك وتستوجب البغض ايضا ممن وافقك عليها لو ظهر من امرك ما
خفي ولا بد من ان يظهر يوما ما
وقال الصبر ما ترك للناس عذرا ولا حجة فمن لم يلق الله بما امره بحلاوة الرضا فليلقه بالصبر وكرهته
ومن لم يلق الله ببغض ما نهاه عنه فلا يلقاه بالحُب له بل بالصبر فما ترك الصبر للناس حجة
وقال من القليل ما يعتبر به الكثير وان اهل الدنيا اذا ارادوا ان يعملوا شيئا بدأوا بالطلب فطلبوا
اداة ما يعمل به ذلك العمل والا فلا سبيل لهم الى ذلك العمل البتة
ولو اجتمع اهل الدنيا كلهم ومعهم اداة كل صناعة هل قدروا ان يثقبوا ابرة الا بأداتها التي هي
اداتها وهكذا جميع الاشياء
هل رأيت بيطارا قط قدر على صناعته بأداة خياط
أو قدر الخياط على صناعته بأداة البيطار
وهكذا كل عمل لا يقدر الحداد على عمله بأداة النجار ولا النجار بأداة الاسكاف
وهكذا اعمال الآخرة لا يقدر عليها الا بأداتها وأصل أداة أعمال الآخرة العلم والمعرفة والاعتبار
فإنها من دلائل الاداة

(1/135)

حب الدنيا رأس كل بلاء

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يعمي ويصم
ويروى عن عيسى عليه السلام انه قال حب الدنيا راس كل خطيئة
وانفع ما عالج به المؤمن في امر دينه قطع حب الدنيا من قلبه فإذا فعل ذلك هان عليه ترك الدنيا
وسهل عليه طلب الآخرة ولا يقدر على قطعه الا بأداته اما اني لا اقول اداته الفقر وقلة الشيء
وكثرة الصيام والصلاة والحج والجهاد ولكن اصل اداته الفكر وقصر الامل ومراجعة التوبة والطهارة

واخراج العز من القلب ولزوم التواضع وعمارة القلب بالتقوى وادامة الحزن وكثرة الهم بما هو وارد عليه

وما اكثر من يعمل هذه الاعمال التي وصفنا وحب الدنيا في قلبه زائد وكثير من الناس من لا يكثر من هذه الاعمال وحبه للدنيا في نقص لانه اخذه من وجهه وجهه ان يلزم نفسه الفكر ويقصر عليه من الامل ولكن الاشياء من حيث اباحها الله فيضعها حيث امره الله ويلزم قلبه ذكر قرب مفارقتها ومفارقة ما فيه وما يصبر اليه من الشدائد من القبر والوقوف بين يدي الله عز وجل وطول الحساب ولا يدري في أي الصنفين عدده

(1/136)

ولا في أي الزمرتين اسمه افي الذين يحشرون الى الجنة زمرا ام في الذين يحشرون الى جهنم وردا وتفكر في ذنوبه التي لو اخذ اهل الدنيا بذنب منها هلكوا وطول خلود اهل النار في النار واشد من ذلك غضب الله على اهل النار ولما يخاف ان يفوته من رضى الله عن اهل الجنة ويقل الفكر في الدنيا وفي نعيمها فان القلب مع الفكر يحيا ان كانت الفكرة في الآخرة ويموت ان كانت الفكرة في الدنيا وقال وما على العبد ان يعزم على ان يجعل خطه من بقية عمره في الدنيا ما كان من جاه أو ثناء أو محمدة من الناس أو قدر عندهم وما كان من فضول النعمة فيها فيعزم على ان يجعل ذلك كله لأعدى عدو له ولأحسد حاسد له لا يقسم على اقاربه واصدقائه منها شيئا بعد ان يرجو ان يكون ذلك كله فكاهه من النار حتى لو دعى اليه وحبس في الحبس الضيق ليقبله لم يقبله واختار الحبس عليه ولحذرته ونفر منه كما كان يطلبه قبل ذلك فلعمري لو لم يكن فيه الا ما يرجو ان يدرك به صلاح ما افسد فيما مضى من عمره فليصلحه وليتخلص مما مضى ويجعل الحزن والهم وقلة ملاقات الناس عدة له مع الدعاء والتضرع ويجعل الموت نصب عينيه

(1/137)

ويستعين بسرعة الخروج من الدنيا فما اهون عند من نزل منزلا وهو يريد الارتحال منه تركه لجاره وما اقل شفقتة عليه وما اشفق من نزل منزلا وهو يريد المقام فيه واحرص على عمارة جماع صلاح النفوس

وقال ان الناسك ان لم يقبل الحكمة ولا الموعظة ولا النصيحة من العدو والصديق والسفيه والحليم فنسكه نسك الملوك

قلت ذكرت شيئاً ينسى شيئاً فمثل أي شيء هذا من الأشياء
قَالَ مِثْلَ الشَّيْءِ فَإِنَّهُ يَهِيحُ الشَّهْوَةُ وَيُورِثُ الْفُسُوءَ وَالْبَطَرَ وَالثَّقَلَ وَالتَّوْمَ
وَمِثْلَ كَثْرَةِ الْكَلَامِ فَإِنَّهُ يَقْسِي الْقَلْبَ وَيَقْلِبُ الْبَهَاءَ وَالْمَهَابَةَ وَيَعْقِمُ الْحِكْمَةَ وَيَكْثُرُ السَّقَطُ
وَمِثْلَ طَوْلِ الْأَمَلِ فَإِنَّهُ يَنْسِي الْآخِرَةَ وَيَذْكُرُ الدُّنْيَا وَيَحْسِنُهَا وَيَجْبِيهِمَا إِلَيْكَ وَيُورِثُ الْحَسَدَ وَالتَّسْوِيفَ
وَيُقَوِّي الْهُوَى وَيَكْثُرُ الشَّهَوَاتُ
وَفِي هَذَا مَا تَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى اضْطِدَادِهِ فَإِذَا فَكَّرْتَ فِيهِ عَرَفْتَ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يُورِثُ الْخَيْرَ وَمَا يُورِثُ
الشَّرَّ وَكُلَّ شَيْءٍ يَشْغُلُ يَشْغُلُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْغَالِ لِأَنَّ الْقَلْبَ وَاحِدٌ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَشْتَغَلَ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ

(1/138)

الارادة والصدق والهوى

اتِّفَاقُ الْهُوَى وَالصَّدَقِ عَلَى عَمَلِ الْبِرِّ

قلت الصدق والهوى متفقان على عمل البر
قَالَ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْخَرَ الْهُوَى لِلصَّدَقِ وَإِنْ كَانَ فَقِيلَ وَالَّذِي يَعْرِفُ هَذَا الْقَلِيلُ فِي النَّاسِ
هُمْ قَلِيلٌ وَالَّذِي يَجْهَلُهُ كَثِيرٌ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ لِلْعَمَلِ قَبْلَ الْعَمَلِ وَالْهُوَى وَالشَّهْوَةُ مِمَّا يَلِي الْعَمَلَ وَالنِّيَّةُ
وَالصَّدَقُ مِنْ وَرَائِهِمَا
فَكُلَّمَا ارَادَ الْعَبْدُ أَوْ هُم بِالْعَمَلِ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ ابْتَدَرَ الْهُوَى وَالشَّهْوَةَ وَالنِّيَّةَ الصَّادِقَةَ فِيهِمَا إِلَى
الْقَلْبِ بِذِكْرِ مَا يُرْجَى وَمَا يُؤْمَلُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ الْعَمَلِ مِنْ حَاجَاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَمَنَافِعِهَا وَمَرَافِقِهَا
وَلِذَاتِهَا وَمَا يُؤْنَسُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَمَا حَسَنَ مَوْقِعِهِ مِنَ النَّاسِ وَذَكَرَهُمْ لَهُ بِالثَّنَاءِ وَالْحَمْدَةِ وَالْقَدْرِ
وَالجَاهِ وَالرَّفْعَةِ وَالرَّاسَةِ
وَالْإِرَادَةُ الصَّادِقَةُ بَعْدَ غَائِبَةٍ وَمَا دَامَتْ غَائِبَةً فَالْقَلْبُ يَقْبَلُ هَذِهِ

(1/139)

الأشياء لا يرد منها شيئاً لانه لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلْقَلْبِ أَمَلٌ فِي هَذَا الْعَمَلِ الَّذِي ارَادَهُ وَهُمْ بِهِ وَالْإِنْسَانُ
أَكْثَرُ شَيْءٍ نَسِيَانًا وَأَكْثَرُ النِّسْيَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا النَّفْسُ وَالْهُوَى إِلَى
الْقَلْبِ مِمَّا ذَكَرْنَا مِنَ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدَةِ وَالرَّفْقِ وَالْقَدْرِ وَالْجَاهِ وَالرَّاسَةِ وَالْمَنْزِلَةِ كُلِّهَا مِمَّا يَتَحَلَّى بِهِ الْقَلْبُ
وَيَشْتَهِيهِ وَيَرْغَبُ فِيهِ فَلِذَلِكَ تَكْثُرُ الْغَفْلَةُ وَالنِّسْيَانُ لِلْإِرَادَةِ الصَّادِقَةِ
وَلَوْ كَانَ مَكَانَ الَّذِي يَسْتَحْلِيهِ الْقَلْبُ وَيَشْتَهِيهِ مَرَاةً وَكَرَاهِيَةً لَمَا كَانَ يَقْبَلُ النِّسْيَانُ وَالْغَفْلَةَ وَلَكِنْ
حَيْثُ جَاءَتْ الْمُؤَافَقَةُ سَكَنَ الْقَلْبُ إِلَى هَذِهِ الْخُلَالِ
فَمَنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْعَمَ عَلَيْهِ حَتَّى تَكُونَ الْإِرَادَةُ الصَّادِقَةُ أَمَامَ الْهُوَى وَشَهْوَةِ النَّفْسِ وَحَتَّى يُرِيدَ
بِالْعَمَلِ وَجْهَ اللَّهِ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ فَفِي هَذَا يَكُونُ شُغْلُ الْقَلْبِ عِنْدَ ذَلِكَ وَفِيمَا يُؤْمَلُ فِيهِ مِنْ رِضَى اللَّهِ

عز وجل وثوابه وما جاءت به النفس والهوى مما ذكرناه لم يقبله القلب ورده عليهم ففي هذا اعظم النعم وعلى صاحبه أكثر الشكر
سبق الهوى على الإرادة الصادقة في العمل

وان كانت النفس والهوى والشهوة سابقات على الإرادة الصادقة فلا بُد لصاحبها من الوقوف والنظر والفكر حتى ينقي قلبه مما عرضت به النفس والهوى والشهوة ويجعل إرادة الله مكان ذلك وامامه فيقبله

(1/140)

القلب ساءة أو سره ثم يتحفظ ويتعاهد حتى يختم العمل الذي افتتحه بالإرادة الصادقة بمثل ذلك وبعد فراغه من العمل ما دام الروح في جسده
وعلّم ان احكام هذا اعز واشد من نقل الصخر وركوب الاسنة الا من رزقه الله احكام ذلك والعناية به مخافة تلف نفسه واحباط عمله لأن العدو ملح مجد محتمل له في ادخال الآفات التي تفسد الاعمال فهو يرصده قبل دخوله في العمل وبعد ما يدخل فيه وبعد ما يخرج منه
عروض الهوى بعد تقديم الإرادة الصادقة

فإن قدم الإرادة والنية الصادقة الصحيحة التي بلا سقم فيها ودخل بها العمل ونفى الهوى ودفع النفس وخالف الشهوة وجاهد العدو فإن صده بعد دخوله في العمل فعرض له بما ذكرنا من الآفات التي تفسد الاعمال فإن قبلها حتى يختم العمل بقبولها فسد عليه أصله الصحيح الذي كان قد أصل ودخل بها في العمل
وإن هو لم يقبل ما عرض له به في العمل ونفاه ودفعه لم يضره ذلك شيئاً
وإن هو قبله ثم انتبه قبل ان يفرغ من العمل فندم ورجع وتيقظ وأزال الغفلة ثم ختم العمل بالندم لم يضره ذلك شيئاً

(1/141)

وإن هو ختم العمل بالصدق والصحة فإنه يطالبه في ذلك العمل ليفسده عليه ولو بعد حين فينبغي للعبد أن يتقي الله وأن يخلص له العمل ويقدم له النية أمام كل عمل وبعد كل عمل الى الممات حتى تكون أعماله كلها لله وحده ولا يطلب الثواب إلا من الله وحده ويجاهد هذا العدو المسلط ويخالف هذا الهوى ويكابد هذه النفس ويتقي هذه الشهوة الهائجة في قلبه ويعلم من يعامل ولمن يعمل له وثواب من يطلب
ويعمل العمل بميجان الرغبة في ثواب الله تعالى وهيجان الرهبة من عقاب الله تعالى وانه إن عمل

على ذلك عمل العمل بشهوة وخفة ومحبة لما قد هاج من رغبته ورهبته فأزال عنه ما ذكرنا من الآفات التي تفسد الأعمال فإذا عمل على ذلك فكأنما جمع له الهوى والصدق جميعاً ولا يبالي إذا كان هكذا موافقة الهوى أو مخالفة وما عليه من مخالفة الهوى إذا سلم من شره وكان ذلك لا يضره فكأنما وافقه فلا بد أن يوقف العبد ويسأل عما عمل ولمن عمل وماذا أراد بما عمل

(1/142)

الرياء والاخلاص وأحكامهما

والإرادة إرادتان إحداهما الدُّنيا والآخرى للآخرة فالصدق والاخلاص إنما هو إذا أراد العبد بعمله وجه الله وليس فيه شيء من معاني الدُّنيا والرياء إنما هو أن تكون الإرادة كلها للدنيا فمنه ما يكون العبد يريد بعمله في أصل العمل المحمودة والثناء ومنه ما يكون العبد يريد به في أصل عمله وجه الله والدَّار الآخرة ويُحب أن يحمد بعمله ويثنى عليه ومنه ما يكون العبد يريد بعمله وجه الله وحده والدَّار الآخرة فإذا دخل في العمل على ذلك الإخلاص عرض له بعض ما ذكرنا من الآفات فقبلها وأحب أن يحمد على عمله وإن يتخذ به منزلة عند أحد من المخلوقين ومنه ما يكون العبد يريد بعمله وجه الله والدَّار الآخرة ويختم عمله بذلك ويُطالب بالآفات بعد الفراغ من العمل ولو بعد حين حتى يخبر بذلك العمل يريد أن يحمد عليه ويتخذ به الجاه والمنزلة عند المخلوقين فهذا أسهل من جميع ما ذكرنا والناس في هذا مختلفون ففرقة تقول هذا من الذُّنوب ولا يفسد العمل لأن العمل قد مضى وختم بالصِّحة فلا يفسد بعد الخاتمة وما لحق العبد بعد ذلك فقبله من هذه الآفات فله في ذلك على العبد مقام ومطالبة والعمل لا يبطل

(1/143)

وقالت فرقة يبطل العمل ولو بعد حين إذا قبل الآفة وأحب المحمودة وأدخل المخلوقين في عمله وأحب عندهم الثناء والمنزلة والجاه العمل الحلي من ذكر الإرادة الصادقة

قلت فأخبرني إذا هم العبد بعمل البر وعمله وفرغ منه ولم يذكر قبل عمله ولا بعد إرادة الآخرة وكان

نَاسِيَا سَاهِيَا عَنْهَا أَلَيْسَ هَذَا عَمَلٌ بِلَا نِيَّةٍ وَلَا صَدَقَ
قَالَ بَلَى

قلت وكيف يكون عمل من أعمال البر مما يُراد الله بمثله بلا نية ولا صدق وقد عمله العبد
قَالَ إِذَا لَمْ يَكُنِ الصَّدَقُ وَلَمْ يَقْدَمْ النِّيَّةُ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ
بِالنِّيَّةِ فَإِنْ قُلْتَ إِنِّي نَسِيتُ النِّيَّةَ وَسَهَوْتُ عَنْهَا فَهَذَا إِفْرَارٌ وَلَيْسَ لَكَ حِجَّةٌ وَإِنَّمَا أَنْسَاكَ النِّيَّةَ الدُّنْيَا
وإِذَا رَدَّتْكَ الْعَالِيَةُ لَهَا
اوليس بليه آدم كَانَتْ مِنَ النَّسْيَانِ وَقِلَّةِ الْعَزْمِ أَوَّلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ
مِنْ قَبْلِ فَنسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}
وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ الْعَمَلَ لَا يَكُونُ عَمَلًا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يَعْمَلَ إِلَّا بِصَدَقَ

(1/144)

نِيَّةٍ وَصِحَّةٍ إِرَادَةٍ وَتَقْدِيمِهِمَا أَمَامَ كُلِّ عَمَلٍ فَهَذَا عِنْدِي هُوَ الْعَمَلُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الاعمال بالنية
وجوب العناية بجواهر الاعمال بأسمائها

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَقُوفَكَ عِنْدَ افْتِتَاحِ الْعَمَلِ وَذِكْرِ الصَّدَقِ وَتَصْحِيحِ النِّيَّةِ وَالْإِرَادَةِ وَنَفُورِكَ مِنَ الرِّيَاءِ وَذِكْرِكَ
الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَيْسَ يَزِيدُ فِي صَدَقِكَ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ رِيائِكَ حَتَّى تَسْتَعْمَلَ التَّقْوَى وَتَقْدِمَ النِّيَّةَ وَتَصَدَّقَ فِي
الْإِرَادَةِ
فَلَا تَفْتَرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَحِبُّ اسْمَ الْخَيْرِ وَيَكْرَهُ نَفْسَ الْخَيْرِ وَيَكْرَهُ اسْمَ الشَّرِّ وَيُحِبُّ نَفْسَ
الشَّرِّ
فَمَا أَحَبُّ إِلَى الْإِنْسَانِ اسْمُ الصَّدَقِ وَمَا أَثْقَلُ عَلَيْهِ نَفْسُ الصَّدَقِ مَا أَشَدَّ بَغْضَ الْإِنْسَانِ لاسْمِ الرِّيَاءِ
وَمَا أَحَبُّ إِلَيْهِ وَأَخْفَهُ عَلَيْهِ وَأَشَدَّ اسْتِعْمَالَهُ لَهُ
فَلَا تَتَسَاهَلْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ عَنْ ذِكْرِ النِّيَّةِ فَإِنَّ الصَّدَقَ وَالنِّيَّةَ اسْمَانِ

(1/145)

ونفسهما الإرادة الصادقة وإن النفس والهوى يجتثان ثمرة العمل بحلاوتهما
وَأَعْلَمُ أَنَّ لَذَّةً فِيمَا تَجِدُ مِنْ حَلَاوَةِ طَعْمِ الْحُلُوى وَغَيْرِ ذَلِكَ إِنَّمَا تَجِدُهَا عِنْدَ أَكْلِكَ إِذَا أَكَلْتَهَا وَحَلَاوَةِ
الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ فِي الْفِكْرِ إِذَا تَابَعْتَهُ عَلَى مَا تُرِيدُ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ إِنَّمَا لَذَّتَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِنْ
يُتَابَعُ فِي فِكْرِهِ وَأَصْلُهُ
وَأَعْلَمُ أَنَّ لَذَّةَ الرِّيَاءِ وَحَلَاوَتَهُ لَذَّةُ تَخَالُطِ الْقُلُوبِ وَتَجَرِّي فِي الْعُرُوقِ فَاحْذَرِ ذَلِكَ فِي ابْتِدَاءِ أَوَّلِ الْعَمَلِ
وَفَاتَشِ الْهَمَةَ وَتَقْصِ تَصْحِيحِ الْإِرَادَةِ وَكُنْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مُرَاقِبًا لِلَّهِ وَحَدَهُ

معرفة الصدق في نقل الارادة من الرياء إلى الصِّحة

قلت إذا اردت أن اعملَ العملَ وقفت قبل الافتتاح فراجعت نيتي وإرادتي فرأيت الرياء قد سبق الصدق ورأيت الصدق غائباً عني فأردت أن انقل الاراة بحقيقتها الى الصدق والصِّحة وحسن النية وأن اتقي الهوى بحليته وريائه وشهوته فمتى أعلم أنني قد فعلت ذلك واتيت منه على ما أردت وقد ذكرت أن ذكر النية والصدق لا ينفعني حتى يكون بتحقيق الارادة قال لأنَّهما لا يجتمعان في قلب واحد ثم قال ربما اجتمع اسمهما

(1/146)

ولا يجتمع انفسهما فإذا لم ترد النفس وتشتهي ما كنت انت تريد وتشتهي من إرادة الله تعالى بذلك العمل والدَّار الآخرة فقد علمت أن هذا قد حضر وذلك قد غاب كما كنت تعلم ان الرياء حاضر والنية غائبة

وإن اشتبه عليك الذي وصفت لك فانقض الامر كأنك لا تريد أن تعمله البتة واصدق فيه فإن علمت أنك قد صدقت بنقضك له فابتدئه من الرأس فإن وجدت من نفسك الرضا والسكون بنقض العمل والتترك له فأعلم أنه علامة حضور الصدق وغيبة الهوى والرياء وإن وجدت كراهية والنقض والتترك فأعلم أن الهوى بعد فيه

قلت اضرب لي فيه مثلاً يكون أبين من هذا

قال مثل رجل هم أن يتخذ طعاماً يدعُو اليه اقواماً فراجع نفسه وعزمه فإذا هو يريد أن يدعُو فلاناً لشيء كان وافقه منه وإذا هو يريد أن يدعُو الآخر يريد ضرباً من الاستطالة وأن يستخدمه ويخضع له وإذا هو يريد أن يدعُو الآخر ليستعين به على ظلم وإذا هو يريد أن يدعُو الآخر ليصيب منه عرضاً من الدنيا وإذا هو يريد ان يدعُو الآخر فيحمده ويثني عليه ويبسط ذكره وإذا هو يريد أن يدعُو الآخر ليجالسه ويزاروه ويدع مجالسة ومزاورة غيره وإذا هو يريد أن يدعُو الآخر لحسن لقاء يلقاه به وأشبه ذلك بما ليس لله سبحانه وتعالى فيه شيء وإنما هو كله للدنيا

(1/147)

فلما استبان له من نفسه هذا ولم تكن إرادته وجه الله وما يرجو من ثواب الله على طعامهم قال في نفسه لما تبين له ذلك لا ولكي أتترك الارادة الاولى واحضر إرادة ثانية أريد بها وجه الله تعالى وحده والدَّار الآخرة

ثم قال فلعلي اخدع في هذا وأنا لا اشعر ولكي أدعُو مكان هؤلاء قوما آخرين اقدم فيهم النية والارادة الصَّحيحة امام الطعام أو لا ادعو احداً

فإن رأى نفسه عند ذلك تنازعه الى ان يدعُوهم فكراهية النفس لترك دعوتهم ومحبتها لدعوتهم علامة

انه غير صادق وأنه مخدوع
وَإِنْ سَكَنْتَ إِلَى التَّرْكِ وَرَضِيتَ بِهِ فَهُوَ مِنْ عِلَامَةِ الْخَيْرِ فَيَنْبَغِي لَهُ حِينَئِذٍ أَنْ يَعْمَلَ وَأَنْ يَمْضِيَ فِيهِ
فَإِنْ شَاءَ دَعَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ دَعَا غَيْرَهُمْ بِنِيَّةٍ جَدِيدَةٍ
كَثْرَةُ الْخَطَا وَخَفَاءُ الْخَدَاعِ فِي هَذَا الْبَابِ

وَإِنْ الْخَدَاعُ وَالْغُلُطُ وَالْخَطَا وَالْعَمْدُ وَالنِّسْيَانُ وَالْفِتْنُ وَالْبَلَايَا فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ إِخْلَاصِ الْعَمَلِ وَصَدَقَ
الْإِرَادَةُ وَتَقَدَّمَ النَّيَّةُ شَدِيدٌ وَالْبَلَاءُ فِيهِ كَثِيرٌ
وَلَشَدَّتْهُ أَعْطَى الْعَبْدَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ بِالْإِخْلَاصِ الثَّوَابَ الْكَثِيرَ

(1/148)

وآفاته أكثر من أن يضبطها الكتاب وَصَحَّتْهُ أَعَزَّ مِنْ أَنْ يَبْلُغَهَا الْآمَنُ الْمَخْدُوعُ الْمَغْتَرِ بِظَاهِرِ الْكِتَابِ
وَظَاهِرِ الْعِلْمِ وَإِنَّمَا يَذْكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَعْرِفُهُ أَهْلُ الْعِنَايَةِ بِنَفْسِهِمُ الَّذِينَ خَافُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ أَنْ تَبْطُلَ
وَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ تَتَلَفَ
وَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَفْتَرَّ عَنْ مَفَاتِشَةِ هِمَّتِهِ وَمَحَاسِبَةِ نَفْسِهِ وَنَقَاءِ ضَمِيرِهِ وَمِرَاقَبَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِنْدَ
كُلِّ عَمَلٍ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ إِلَّا فَهُوَ مَخْدُوعٌ
وَاللَّهُ نَسَأَلَ التَّوْفِيقَ وَالْفَهْمَ وَالْعِزْمَ الصَّحِيحَ وَالْإِرَادَةَ الصَّادِقَةَ
وَأَعْلَمَ أَنَّ السَّهْوَ وَالْغَفْلَةَ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي بِهِ تَصْفُو الْأَعْمَالُ جَهْلٌ شَدِيدٌ وَاغْتِرَارٌ وَقِلَّةُ عِنَايَةٍ
بِالنَّفْسِ وَقِلَّةُ مِبَالَاةٍ بِاطْلَاعِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى فُسَادِ الْعَمَلِ وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا
نَتَجَتِ الْهَلَكَةُ
وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ الرَّشَادَ وَالسَّدَادَ وَالْعَوْنَ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا قَدْ عَلِمْنَا وَالشُّكْرَ عَلَى مَا قَدْ فَهِمْنَا
وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَزِيدَنَا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

(1/149)

دَلَائِلُ وَعَلَامَاتُ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَرْوَى عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ
إِذَا ظَنَّ بَكَ النَّاسُ أَنَّكَ تَعْمَلُ عَمَلًا مِنَ الْخَيْرِ وَلَسْتَ تَعْمَلُهُ أَوْ كُنْتَ تَعْمَلُ عَمَلًا مِنَ الْخَيْرِ وَظَنُّوا
أَنَّكَ تَعْمَلُ أَكْثَرَ مِنْهُ وَرَفَضْتَ أَنْ يَطْلُعُوا عَلَى حَقِيقَةِ عَمَلِكَ فَأَنْتَ مُنَّ يَجِبُ أَنْ يَحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ
وَأَنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَطْلُعُوا عَلَيْهِ فَأَنْتَ تَحِبُّ أَنْ تَحْمَدَ بِمَا قَدْ فَعَلْتَ
وَقَالَ عِلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ حُبُّ جَمِيعِ مَا أَحَبَّ اللَّهُ
وَعِلَامَةُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَرْكُ جَمِيعِ مَا كَرِهَ اللَّهُ
وَعِلَامَةُ الْحَيَاءِ مِنَ اللَّهِ الْإِتْسَانُ الْوَرُودُ عَلَى اللَّهِ وَأَنْ تَكُونَ مِرَاقِبًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ عَلَى قَدَرِ قُرْبِ

الله تَعَالَى مِنْكَ واطلاعه عَلَيْكَ
وَمِنْ عَلَامَةِ حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ شِدَّةُ الْاجْتِهَادِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ
وَعَلَامَةُ النَّاصِحِ لِلَّهِ شِدَّةُ الْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ وَفَهْمُ كِتَابِهِ وَالْعَمَلُ بِهِ

(1/150)

وَاتِّبَاعَ سُنَنِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ يَحِبُّ أَنْ يَطَاعَ فَلَا يَعْصِي وَإِنْ يَذْكُرُ فَلَا يَنْسَى
وَعَلَامَةُ النَّصِيحِ لِلنَّاسِ أَنْ تَحِبَّ لَهُمْ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ تَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ
مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى
وَعَلَامَةُ الصَّبْرِ الْإِشْكُوفُ مِنْ جَمِيعِ الْمَصَائِبِ إِلَى اخْتِدَادِ الْمَخْلُوقِينَ شَيْئًا
وَالصَّبْرُ هُوَ الصَّبْرُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالصَّبْرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَالصَّبْرُ عَلَى كِتْمَانِ الْمُصِيبَةِ وَهُوَ مِنْ كُنُوزِ الْبِرِّ
وَالصَّبْرُ عَلَى كِتْمَانِ الطَّاعَةِ وَالصَّبْرُ حَبْسِ النَّفْسِ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ
وَمِنْ عَلَامَةِ الرِّضَا عَنِ اللَّهِ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَهُوَ سُكُونُ الْقَلْبِ إِلَى أَحْكَامِ اللَّهِ وَالتَّفْوِيزُ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ
الرِّضَا وَالرِّضَا بَعْدَ التَّفْوِيزِ
وَمِنْ عَلَامَةِ صِدْقِ الرَّجَاءِ شِدَّةُ الطَّلَبِ وَالْجِدُّ وَالْاجْتِهَادُ لِيَدْرِكَ مَا رَجَا
وَمِنْ عَلَامَةِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ سُوءَ الظَّنِّ بِهَا

(1/151)

وَمِنْ عَلَامَةِ الشُّكْرِ مَعْرِفَةُ النِّعْمَةِ بِالْقَلْبِ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ وَالْحَمْدُ عَلَيْهَا بِاللِّسَانِ وَالْإِسْتِعَانُ
بِهَا عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَكْرَهُ الْمُنْعَمُ
قُلْتُ فَمَا تَصْدِيقُ مَعْرِفَتِي هَذِهِ
قَالَ الْقِيَامُ بِالْمُكَافَأَةِ بِهَا وَإِنْ كَانَتْ لَأَنْكَأَ وَلَكِنْ اعْطَاءُ الْمَجْهُودِ فِي شُكْرِهَا
وَمِنْ عَلَامَةِ مَعْرِفَةِ الدُّنْيَا التَّوَكُّلُ عَلَيْهَا وَالزَّهْدُ فِيهَا وَالْوَحْشَةُ مِنْهَا وَمَنْ رَكْنَ إِلَيْهَا وَاحْبَبَهَا وَآثَرَهَا عَظُمَ
قَدْرُهَا
وَمِنْ عَلَامَةِ مَعْرِفَةِ الْآخِرَةِ هَيْجَانُ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَشِدَّةُ الشُّوقِ إِلَيْهَا وَالْإِنْسَانُ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهَا وَمُؤَانَسَةِ مَنْ
صَدَقَ فِي الْعَمَلِ لَهَا
وَمِنْ عَلَامَةِ الْعَقْلِ حَسَنُ التَّدْبِيرِ وَوَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ بِإِثَارِ
الْأَكْثَرِ عَلَى الْأَقَلِّ
وَمِنْ عَلَامَةِ الْعَدْلِ أَنْ تَجْعَلَ الْحُكْمَ حَكْمِينَ فَتَحْكُمَ لِنَفْسِكَ بِحُكْمِ وَلِلنَّاسِ بِآخِرِ حَتَّى يَكُونَ الْحُكْمُ فِي
نَفْسِكَ وَفِي غَيْرِهَا حُكْمًا وَاحِدًا وَإِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ
وَمِنْ عَلَامَةِ التَّوَاضُّعِ أَنْ يَدْعُوكَ أَحَدٌ إِلَى حَقِّهِ الْأَقْبَلِ وَلَمْ تَرِدْهُ وَلَا تَرَى أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَأَيْتَ

نفسك دونه
وَالنَّاسُ يَتَفَضَّلُونَ فِي الْمَعْرِفَةِ بِالْإِيثَارِ وَالرِّضَا وَالشُّكْرِ وَالْحُبِّ وَالثَّقَةِ

(1/152)

وَالْخَوْفُ وَالْيَقِينُ وَالصَّبْرُ وَادْنَى الدَّرَجَاتِ الصَّبْرُ وَكَثَرَهَا كُلُّهَا الْيَقِينُ
وَمِنْ عِلَامَةِ حَسَنِ الْخُلُقِ اخْتِمَالُ الْإِذَى فِي ذَاتِ اللَّهِ وَكُظْمُ الْغِيظِ وَكَثْرَةُ الْمُوَافَقَةِ لِأَهْلِ الْحَقِّ عَلَى
الْحَقِّ وَالْمَغْفِرَةِ وَالتَّجَافِي عَنِ الزَّلَّةِ
وَمِنْ عِلَامَةِ سُوءِ الْخُلُقِ كَثْرَةُ الْخِلَافِ وَقِلَّةُ الْإِخْتِمَالِ
وَمِنْ عِلَامَةِ الْإِلْفَةِ قِلَّةُ الْخِلَافِ وَبُذُلُ الْمَعْرُوفِ
وَعِلَامَةُ الصَّدْقِ إِرَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ وَتَرْكُ التَّرِينِ وَحُبُّ ثَوَابِ الْمَخْلُوقِينَ وَالصَّدَقِ فِي
الْمَنْطِقِ
وَطِيبُ الْعَيْشِ الْقَنَاعَةُ وَالْعِلْمُ خَشْيَةُ اللَّهِ وَهِيَ إِثَارُ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا وَمَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ
وَصَلَاحُ الْقَلْبِ الرَّافَةُ وَالرِّقَّةُ وَفَسَادُ الْقَلْبِ الْقَسْوَةُ وَالْغُلْظَةُ
وَالذُّعُشُ الْإِنْسَانُ بِاللَّهِ
وَالْإِنْسَانُ اجْتِمَاعُ الْهَمَّةِ

(1/153)

وَإِشْرَ الشَّرِّ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا قَوَامَ لَخَيْرٍ مَعَهُ الْكِبَرُ وَخَيْرُ الْخَيْرِ الَّذِي لَا شَرَّ فِيهِ التَّوَضُّعُ وَهُوَ أَنْ
تَضَعَ نَفْسَكَ دُونَ النَّاسِ
وَالْكِبَرُ أَنْ تَرْفَعَهَا فَوْقَ النَّاسِ وَمَا خَيْرٌ لِعَبْدٍ آثَرَ عَلَى التَّوَضُّعِ شَيْئًا
وَالْحَزْمُ الْفَرَارُ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ فِيهِ مُحَنَةٌ
وَالصَّبْرُ مُخَالَفَةُ الْمَحَبَّةِ وَلَا يَصْعَبُ مَعَ قُوَّةِ الصَّبْرِ شَيْءٌ مِنَ الْعِبَادَةِ حَتَّى تَرْتَفِعَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّبْرِ إِلَى
دَرَجَةِ الْخَوْفِ ثُمَّ مِنْ دَرَجَةِ الْخَوْفِ إِلَى دَرَجَةِ الْمَحَبَّةِ
وَكَمَا لَا يَطِيبُ لِعَبْدٍ شَيْءٌ اعْطَاهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بِالْقَنُوعِ كَذَلِكَ لَا يَطِيبُ لَهُ عَمَلُ الْآخِرَةِ إِلَّا بِالْخَوْفِ
وَالْحُبِّ فَإِذَا صَارَ الْعَبْدُ إِلَى ذَلِكَ سَقَطَتْ عَنْهُ مُؤَنَةُ الصَّبْرِ وَتَنَعَّمَ بِالْخَوْفِ وَالشُّوقِ

(1/154)

نعيم الخوف والشوق

المعرفة ونعيم الخوف

قلت فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَنْتَقِلُ مِنْ دَرَجَةِ الصَّبْرِ إِلَى دَرَجَةِ النَّعِيمِ

قَالَ بِحَسَنِ الْمَعْرِفَةِ

قلت مِمَّا حَسَنَ الْمَعْرِفَةِ

قَالَ افْتِقَارَ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ وَاقْتِرَابَهُ مِنْهُ وَمِنْ دَارِ الْآخِرَةِ حَتَّى كَانَتْهُمَا رَأْيِي الْعَيْنُ وَيَجْعَلُ الذُّنُوبَ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ نَصَبَ عَيْنَيْهِ وَيَجْعَلُ النِّعْمَةَ الَّتِي قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا وَالَّتِي لَا يَحْصِيهَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شُكْرِهَا فِي أَقْرَارِ قَلْبِهِ بِذَلِكَ وَاجْلَالِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَوَعِيدِهِ وَاهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَمَا بَعْدَهَا وَمَا قَبْلَهَا مِنَ الْبَرْزَخِ وَالْمَوْتِ

فَإِذَا اسْتَقَرَّ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ وَسَكَنَ الْقَلْبُ إِلَى ذَلِكَ كَذَلِكَ انار القلب وعمر بعد الخراب واضاء بعد الظلمة ثم لانت المفاصل عند ذلك

(1/155)

وتوثبت الجوارح الى الطاعات فعند ذلك تسقط مؤنة الصبر ويصير في درجة الخوف والحبّة للعبادة وعند ذلك يجد حلاوة ما هو فيه فتلك العبادة بحسن المعرفة

فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَعْزُضَ لَهُ مِنْ دَوَاعِي الدُّنْيَا وَوَسَاوِسِ النَّفْسِ مَا إِنْ مَالَ إِلَيْهِ قَطْعُهُ عَنْ تِلْكَ الْحَلَاوَةِ وَرَدَهُ إِلَى دَرَجَةِ الصَّبْرِ

ولساعة واحدة من تلك الساعات خير من ايام كثيرة من ايام الصبر لان فيها الخوف وفيها الحب وفيها الشكر وفيها التدم وهو التوبة وتعظيم ما عظم الله وتصغير الدنيا والانس بالله

فَلَا يُلْحَقُ صَاحِبُ هَذِهِ الدَّرَجَةِ صَاحِبُ الصَّوْمِ الْكَثِيرِ وَالصَّلَاةِ الْكَثِيرَةِ وَالْحَجِّ وَالْغَزْوِ وَهَكَذَا الْعَمَلُ إِذَا كَانَ بِالْمَعْرِفَةِ الْقَوِيَّةِ

كَيْفَ غَفَلَ النَّاسُ عَنْ هَذِهِ الدَّرَجَةِ

قلت فَأَيُّ الْمُرِيدِينَ عَنْ هَذِهِ الدَّرَجَةِ وَلَمْ لَا يَكُونُ اهْتِمَامُهُمْ وَعِنَايَتُهُمْ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِمْ بغيرها من الدَرَجَاتِ

فَقَالَ هَذِهِ الدَّرَجَةُ فِي الدَّرَجَاتِ كَالْجَوْهَرَةِ فِي الْأَشْيَاءِ وَكَالْلَوْلُؤَةِ الْفَائِقَةِ فِي الْفِ لَوْلُؤَةٍ وَالْجَنَسِ وَاحِدٍ وَانَّمَا قُلْنَا أَهْلُ هَذِهِ الدَّرَجَةِ وَعَزَّوْا لِأَنَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا صَعُوبَتُهُ فِي الْمَسْلُوكِ إِلَيْهِ فَإِذَا صُرْتُ إِلَيْهِ صُرْتُ إِلَى سَهُولَةٍ وَرَخَاءٍ وَانْسٍ وَمِنْ الْأَشْيَاءِ مَا سَهُولَتُهُ وَشَهْوَتُهُ فِي طَرِيقِهِ وَصَعُوبَتُهُ وَشِدَّتُهُ فِي نَفْسِ ذَلِكَ

الشَّيْءِ إِذَا صُرْتُ إِلَيْهِ

(1/156)

والعامة يعنون بالشئ الذي فيه السهولة فإذا صاروا الى الشدة والمرارة كاعوا وتحيروا وخسروا وقد كانوا قبل ذلك يسرعون اليه لما فيه من السهولة
اولا تراهم يطلبون العلم فإذا صاروا الى استعمال العلم والورع لا ترى من يستعمله ولا من يريد الا الواحد بعد الواحد

اولا تراهم يتعلمون السير وفضائل الجهاد فإذا صاروا الى شروط الجهاد لا ترى من يقوم بعمله هذه الدرجة شديدة في الطريق اليها ولا ترى في طريقها الا الواحد بعد الواحد من الكثير فلذلك قل اهل هذه الدرجة وكثر طلاب غيرها من الدرجات لانها هي الدرجة التي استعبدت العباد وهي درجة الصديق وصار علمها مهجورا وصار الناس انما يريدون من العمل ما خف محمله وقلت فيه مفاتشة الهمة ونقاء الضمير والتوقف ومحاسبة النفس ومخالفة الهوى ومجاهدة العدو واعلم ان رضا العبد بالحالة التي هو عليها مقيم ضعف وبلية نزلت به

(1/157)

المحب مسارع الى القربات

وقال المحب ينزع الى القرية ابدا ما عاش والخائف يتعرض للنجاة فلما استيقن بالرحيل صار مخادعا لنفسه ومؤثرا لما قدم على ما خلف
ولا اعلم في الناس شيئا اقل من الغضب لله والرضا لله والحب لله والبغض لله واقل من ذلك الرضا عن الله تعالى والتسليم لأمره وتفويض الامور الى الله
واكثر سلامة الناس من الشر بالصبر واكثر طلبهم للخير بما وافق الهوى والانسان في اكثر النعم يخالف الشكر واقرب خصال الخير من الله اثقلها على العبد ولو قبلها بشكر كان اقربها الى الله احبها اليه

فهذا العبد يرجو رحمة الله باليسير من البر كما يرجوه بالكثير من البر سواء ويخاف سخط الله باليسير من الذنوب كما يخاف سخطه بالكثير من الذنوب سواء ولا يكون حسن الرغبة في كثير من الحسنات الا كان في القليل كذلك
وقال اذا اردت ان تصلح من امرك شيئا فاشتد عليك فحل عن جميع اعمال البر من التطوع كلها واجعل شغلك كله فيه فانك تعان عليه ان شاء الله

(1/158)

مراتب العمل لله

وَقَالَ النَّاسُ يَعْمَلُونَ عَلَى أَرْبَعَةِ وُجُوهِ
فَأَشْرَفَهَا وَأَفْضَلَهَا قَوْمِ عَمِلُوا لِلَّهِ عَلَى التَّعْظِيمِ لَهُ فَحَسَنَتْ أَعْمَالُهُمْ وَكَرُمَتْ فِعَالُهُمْ عَلَى وَجْهِ عَظَمَتِهِ
فِي صُدُورِهِمْ وَعَظَمَ قَدْرَهُ فِي قُلُوبِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ وَلَا الذِّعْنَةُ مِنْ شَيْءٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهِ
إِلَيْهِ
وَأَخْرُجُوا عَمِلُوا عَلَى وَجْهِ الرَّغْبَةِ وَالْحَرَصِ عَلَى جَوَارِهِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا تَرْكُ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ لِعَظِيمِ
ثَوَابِهِ وَخَافُوا فَوَاتِ خَيْرِ مَا عِنْدَهُ مِنْ عَظِيمِ مَا أَعَدَّ مِنَ الثَّوَابِ لِأَهْلِ وَلَايَتِهِ
وَأَخْرُجُوا عَمِلُوا مَخَافَةً مِنْهُ وَمِنْ عِقَابِهِ فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ فِي الرَّهْبَةِ مِنَ الْعِقَابِ قَدْ خَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرَّغْبَةِ
فِي الثَّوَابِ وَكَانَتْ الْأَعْمَالُ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْفِرَارِ مِنَ الْعِقَابِ وَلَيْسَ يَخْطُرُ الثَّوَابُ عَلَى قُلُوبِهِمْ لِعَظَمِ
الْعِقَابِ فِي صُدُورِهِمْ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ بَلَّغْنَا أَعْمَالَنَا إِلَى الْخُلَاصِ مِنَ الْعِقَابِ لَقَدْ ظَفَرْنَا بِالْفَوْزِ
الْعَظِيمِ
فَخَرَجَتْ الرَّغْبَةُ مِنْ قُلُوبِهِمْ مِنْ كَثَرَةِ الرَّهْبَةِ فَمَا تَخْطُرُ الْجَنَّةُ بِقُلُوبِهِمْ مِنْ عَظَمِ الْعِقَابِ فِي صُدُورِهِمْ

(1/159)

وَأَخْرُجُوا عَمِلُوا عَلَى وَجْهِ الْحَيَاءِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ اسْتَحْيَوْهُ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ إِذَا غَلَقَتِ الْأَبْوَابُ
وَارْحَيْتِ السُّتُورُ عَلَيْهِمْ لَمَّا يَقْنُوهُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَلِي عَرَضَهُمْ وَمَسَاءَلَتَهُمْ
فَاسْتَحْيَوْا مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ يَعْمَلُونَهُ فِي سِرَائِرِهِمْ حَتَّى كَانَتْهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَلَمَّا اسْتَيْقَنُوا بِنَظَرِهِ إِلَيْهِمْ قَالُوا
سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَظَرُ الْإِنْسَانِ أَوْ نَظَرُنَا إِلَيْهِ وَاقْنُوا أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ
فَلَمَّا يَقْنُوا بِذَلِكَ حَالِ يَقِينِهِمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَثَاقِيلِ الدَّرِّ وَمَوَازِينِ الْحَزْدِ مِمَّا يَكْرَهُ الْمَطْلَعُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ
الْحَائِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَكْرَهُ سَيِّدُهُمْ مَعْرِفَتَهُمْ بِأَنَّهُ مَطْلَعٌ فِي ضَمَائِرِهِمْ وَيَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ تَكُونُ مِنْهُمْ وَكُلِّ سَكُونٍ وَكُلِّ خَطَرَةٍ وَكُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ وَكُلِّ هِمَّةٍ وَكُلِّ ارَادَةٍ وَكُلِّ نِيَّةٍ
وَكُلِّ مَحَبَّةٍ وَكُلِّ شَهْوَةٍ
وَأَمَّا نَحْنُ فَلَمْ يَهَيِّجْنَا عَلَى عَمَلِنَا التَّعْظِيمُ لَهُ وَلَمْ تَهَيِّجْنَا رَغْبَتُنَا فِي عَظِيمِ الثَّوَابِ فَتَتَقَرَّبُ بِحَسَنِ الْفِعَالِ
وَلَمْ تَدْعُنَا الرَّهْبَةَ مِنَ الْعِقَابِ إِلَى تَرْكِ مَسَاوِيءِ الْأَعْمَالِ وَلَمْ يَحِلِّ الْحَيَاءُ مِنْهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَبِيحِ الْأَعْمَالِ
فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ
فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْمَنَّانَ الَّذِي مِنْ عَلَيْهِمْ إِنْ يَمُنْ عَلَيْنَا بِمَا مِنْ بِهِ عَلَيْهِمْ وَإِنْ يَهَبْ لَنَا مِثْلَ فِعَالِهِمْ فَإِنَّهُ فِعَالٌ لَمَّا
يُرِيدُ
وَقَالَ الصَّدَقُ عِنْدَ الْعَبْدِ عَلَى قَدْرِ ارَادَتِهِ وَالشُّكْرُ عِنْدَهُ عَلَى قَدْرِ مَوْقِعِ النِّعْمَةِ مِنْهُ

(1/160)

السلوك السلفي

ذكر الآخرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَرَوِي عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَخِي لَهُ
سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَّا بَعْدُ فَادْكُرْ مَا أَنْتَ عَنْهُ زَائِلٌ وَعَلَيْهِ قَادِمٌ وَإِلَيْهِ صَائِرٌ كَذَكَرٍ مِنْ نَظَرٍ فَأَعْتَبِرْ وَاخْذُ
حَذْرَهُ فَازْدَجِرْ وَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ عَنْ شِدَّةِ الْعِنَايَةِ لِلْسَدَادِ وَالرَّشَادِ وَحَسَنِ الْإِسْتِعْدَادِ لِلْمَعَادِ
فَلَوْ فَكَّرَ الْعِبَادُ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُهُمْ أَنْ يَرُدُّوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا بِمَا لَهُ فِيهِ رِضًا عَلِمُوا أَوْ جَهِلُوا وَالْأَمْرُ
يُطْلَعُ اللَّهُ عَلَى ضَمَائِهِمْ فَيَرَى فِيهَا شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ وَإِنْ يَكُونُوا نَادِمِينَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ
رِضَاهُ مِمَّا عَلِمُوا أَوْ جَهِلُوا أَذْنٌ لَا جِتْهَدُ مِنْ كَانَ يَخَافُ اللَّهُ مِنْهُمْ بِالْغَيْبِ إِنْ يَكُونُ مَجْهُولُهُمْ مَعْلُومًا
وَمَعْلُومُهُمْ مَعْمُولًا بِهِ وَإِنْ يَكُونُوا نَادِمِينَ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ
وَأَعْلَمُ يَا أَخِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ نَجَاةَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ ثُمَّ فِي الْإِرَادَةِ ثُمَّ فِي تَرْكِ مَا أَمَرَهُمْ
بِتَرْكِهِ ثُمَّ فِي الْعَمَلِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ ثُمَّ فِي شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا

(1/161)

معرفة الله

فَأُولَ مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَعْرِفُوهُ عَنْ الْوُجُوهِ الَّتِي تَعْرِفُ إِلَيْهِمْ مِنْهَا فَإِنَّهُ قَدْ تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ مِنْ
خَلْقِهِ لِلْخَلْقِ وَتَدْبِيرِهِ فِي الْخَلْقِ وَمِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْخَلْقِ وَتَكْفُلِهِ بِأَرْزَاقِ الْخَلْقِ وَأَمَاتَتِهِ الْخَلْقَ وَاحْيَاةِ
الْخَلْقِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ
إِرَادَةُ اللَّهِ بِالْعَمَلِ

وَأَرَادَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ أَنْ يَرِيدُوهُ بِكُلِّ مَا عَمِلُوا مِنْ أَعْمَالِ الْبَرِّ وَلَا يَرَوْنَ غَيْرَهُ وَلَا يَطْلُبُونَ الثَّوَابَ إِلَّا
مِنْهُ فَلَوْ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ الْمَعْرِفَةِ شَيْءٌ لَكَانَتْ الْإِرَادَةُ قَبْلَ الْمَعْرِفَةِ وَلَوْ اسْتَغْنَى عَنْ الْمَعْرِفَةِ
بِشَيْءٍ لَاسْتَغْنَتْ الْإِرَادَةُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ
فَالْمَعْرِفَةُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَأَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ الْإِرَادَةُ وَهِيَ مِنْهَا وَهِيَ تَحْقِيقُ التَّوَكُّلِ وَتَحْقِيقُ الْعَمَلِ وَالْإِخْلَاقِ
وَالْإِعْطَاءِ وَالْحُبِّ وَالْكَرْهِ فِي الْأَعْمَالِ كُلِّهَا
وَهِيَ وَلِيَّةُ عَقْدِ مَنَافِعِ أَهْلِ الْأَعْمَالِ فِي أَعْمَالِهِمْ
شُكْرُ النِّعَمِ

وَالشُّكْرُ عَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ فَمِفْتَاحُ النِّعَمِ وَأَفْضَلُهَا كُلُّهَا وَأَوَّلُهَا هِيَ

(1/162)

نِعْمَةُ الْمَعْرِفَةِ وَلَا أَعْلَمُ بَعْدَ نِعْمَةِ الْمَعْرِفَةِ أَعْظَمُ قَدْرًا مِنْ نِعْمَةِ الْعَقْلِ وَنِعْمَةِ الْإِرَادَةِ نِعْمَةُ يَعْصِرُ مَبْلَغَ شُكْرِهَا
وَأَخِرُ النِّعَمِ نِعْمَةُ الْحِكْمَةِ فَنَسْأَلُ اللَّهَ خَاتِمَةَ خَيْرٍ وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَعْرِفَنَا جَمِيعَ نِعَمِهِ وَأَنْ يُوْزِعَنَا الشُّكْرَ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ يَنَالُ الْعَبْدُ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْإِرَادَةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا لَا يَنَالُهُ صَاحِبُ الْعَمَلِ الْكَثِيرِ
مَعْرِفَةُ مَا يَحِبُّ اللَّهُ وَمَا يَكْرَهُ

وَأِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَوْلَى بِالْعَبْدِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا يَكْرَهُ اللَّهُ وَهُوَ الَّذِي نَهَاهُ عَنْهُ وَتَقَدَّمَ فِيهِ بِالْوَعِيدِ وَالزَّجْرِ وَالتَّحْذِيرِ
ثُمَّ مَعْرِفَةُ مَا أَحَبَّ اللَّهُ وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ وَرَغِبَ فِيهِ
فَأَبْلُغِ الْأَعْمَالَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ مُفَارَقَةً مَا يَكْرَهُ اللَّهُ ثُمَّ مُبَاشَرَةً مَا يَحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا رَغِبَ فِيهِ
فَانْظُرِي يَا أَخِي إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا يَكُنْ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمِيتَ خَصْلَةً

(1/163)

تَهَاوَاهَا نَفْسُكَ مِمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَحْيَا لَكَ مَكَانَهَا خَصْلَةً مِمَّا يَحِبُّ اللَّهُ وَلَكَ بَعْدَ ذَلِكَ التَّضْعِيفُ مِنَ النُّورِ السَّاطِعِ فِي قَلْبِكَ وَالْفَهْمِ
وَأَعْلَمُ يَا أَخِي أَنَّ الدُّنْيَا مِنْهَا حَلَالٌ مُبَاحٌ وَمِنْهَا شُبُهَاتٌ وَمِنْهَا حَرَامٌ
فَإِذَا كَانَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ عَقْدَةٌ مَتَمَكِّنَةٌ مِنْ عَقْدِ حُبِّ الْحَلَالِ الْمُبَاحِ لَمْ تَنْقَطِعْ عَنْهُ مَوَادُّ نَوَازِعِ الشُّبُهَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ
وَإِذَا كَانَ فِي قَلْبِهِ عَقْدَةٌ مَتَمَكِّنَةٌ مِنْ عَقْدِ حُبِّ الشُّبُهَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ لَمْ تَنْقَطِعْ عَنْهُ مَوَادُّ نَوَازِعِ الْحَرَامِ
وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ مَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ فَأَوْشَكَ أَنْ يَوَاقِعَ الْحَرَامَ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ
فَكُلٌّ مِنْ تَمَكَّنَتْ الشُّبُهَاتُ مِنْ قَلْبِهِ وَاطْمَأَنَّ إِلَى اخْتِذَاهَا وَقَعَ فِي الْحَرَامِ لِأَنَّ الشُّبُهَاتِ أَقْرَبُ إِلَى الْحَرَامِ مِنْهَا إِلَى الْحَلَالِ
قُلْتُ فَكَيْفَ يَصْنَعُ النَّاسُ بِمِرَافِقِهِمْ وَحَوَائِجِهِمْ
فَقَالَ إِنِّي لَمْ أَنْهَكَ عَنْ كَسْبِكَ وَحَوَائِجِكَ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا وَإِنَّمَا أَحْذَرُكَ أَخْذًا مَا لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا وَنَهَيْكَ عَنْ اعْتِقَادِ الْحَبِّ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا حَتَّى تَكُونَ تَأْخُذُهَا مِنَ الْمُبَاحِ وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَأَنْتَ عَالِمٌ بِهَا وَبَصِيرٌ قَدَرَهَا عِنْدَ خَالِقِهَا إِذْ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى}

(1/164)

وَإِذْ يَقُولُ نَبِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ عَدَلَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً
مَاءً
وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُعْتَقِدَ لِحُبِّهَا وَهُوَ عَالَمٌ بِهَا لَا يُؤْمِنُ عَلَيْهِ أَنْ تَسْتَوِيَ عَلَى قَلْبِهِ فَتَمْلِكُهُ فَيَأْخُذَ بَعْدَ الْحَلَالِ
الشُّبُهَاتِ وَبَعْدَ الشُّبُهَاتِ الْحَرَامَ
وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُعْتَقِدَ لِحُبِّهَا وَغَيْرَ الْمُعْتَقِدَ يَأْتِيَانِ عَلَى حَاجَتَهُمَا وَاعْتِقَادَ حُبِّ الدُّنْيَا مِنَ الْحَلَالِ وَهِنَّ فِي
قُلُوبِ الْعَارِفِينَ وَلَا يَزِيدُ ذَلِكَ فِي رِزْقِ الْمُعْتَقِدِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ رِزْقِ الَّذِي لَا يَعْتَقِدُ الْمَحَبَّةَ
وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَ إِنَّمَا أَمْرُوا بِالِاشْتِغَالِ بِالْعِلْمِ مِنَ الْجَهْلِ وَبِالْعَمَلِ بِالْإِخْلَاصِ وَلَا تَنَالُ هَذِهِ الدَّرَجَةَ حَتَّى
تَكُونَ بِحَالَةٍ لَوْ قَدَرْتَ أَنْ تَتْرَكَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا لِتَرْكِهِ
آفَةٌ حُبِّ الْجَاهِ عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ

وَأَمَّا الشَّيْبَةُ الْآخَرَى الَّتِي يَكْرَهُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَطَمَعُكَ فِي الْقَدْرِ وَالْجَاهِ وَالشَّيْبَةُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ
وَخَوْفُكَ مِنْ سُقُوطِ مَنْزِلَتِكَ عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ وَذَلِكَ مِمَّا يَسْقُطُ مَنْزِلَتُكَ عِنْدَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ
فَاهِلُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَأَهْلُ الْإِرَادَةِ يَكْرَهُونَ أَنْ يَرَاهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَقَدْ اعْتَقَدُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا
حَمَلَتْهُمْ الْمَعْرِفَةُ بِالْإِجْلَالِ لِلَّهِ وَابْتِغَاءَ مَحَبَّتِهِ عَلَى أَلَّا يَنْظُرَ إِلَيْهِمْ سَيِّدُهُمْ

(1/165)

وَفِيهِمْ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُهُ فِي مَبْلَغِ عِلْمِهِمْ فَهُمْ يَكْرَهُونَ مَا يَكْرَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِهِمْ فَكَيْفَ يَرْضَوْنَ بِهِ فِي
أَنْفُسِهِمْ
أَبَتْ مَعْرِفَةُ اللَّهِ أَنَّ يَسَاكِنَهَا شَيْءٌ مِنْ مَكَارَةِ اللَّهِ وَأَبَتْ الْإِرَادَةُ أَنْ تَشْتَغَلَ بِغَيْرِ مَا أَحَبَّ اللَّهُ قَدْ شَغَلَتْهُمْ
الْمَعْرِفَةُ بِالْفِكْرِ فِي كَثْرَةِ نِعَمِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ وَعَجْزِهِمْ عَنْ أَدَاءِ شُكْرِهَا مَعَ عِجْزِهِمْ عَنْ إِحْصَاءِ
عَدَدِهَا وَبِاسْتِكْثَارِ ذُنُوبِهِمْ وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِمْ لِلْحَيَاءِ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَسْأَلُوا الْجَنَّةَ فَلَيْسَ تَخْطُرُ الْجَنَّةُ لَهُمْ عَلَى بَالٍ
قَدْ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَسْأَلَتِهَا الْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ وَالْخَوْفُ مِنْهُ وَمُصِيبَتُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا يَخَافُونَ مِنْ قُوَّةِ
رِضْوَانِ اللَّهِ عَنْهُمْ وَسَخَطِهِ عَلَيْهِمْ أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَوْجَعُ لِقُلُوبِهِمْ مِنْ قُوَّةِ الْجَنَّةِ وَخَوْفِ النَّارِ وَمَنْ
الَّذِي يَجِدُونَ مِمَّا يَلْقَى الشَّيْطَانُ مِنَ الْخَطَرَاتِ وَعَوَارِضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ التَّزِينِ لِأَهْلِهَا عِنْدَ عِبَادَتِهِمْ
وَطَاعَتِهِمْ وَكَثْرَةِ فَسَادِ النَّيَّةِ وَالْآفَاتِ الَّتِي تَعَارِضُهَا فَهُمْ بِذَلِكَ مَغْمُوصُونَ مَكْرُوبُونَ مَخَافَةً أَنْ يَرَاهُمْ اللَّهُ
وَقَدْ تَرَيْنَا لِأَحَدٍ غَيْرِهِ
فَلَا تَكُنْ يَا أَخِي بِشَيْءٍ أَعْنَى مِنْكَ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْإِرَادَةِ فَإِنَّ الْخَيْرَ تَبِعَ لِهَمَّا وَهِيَ عَلَامَةُ نَظَرِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ وَبِاللَّهِ
التَّوْفِيقِ
السَّمْعُ عَنِ اللَّهِ وَالْعَقْلُ عَنِ اللَّهِ

ثُمَّ أَوْصِيكَ يَا أَخِي بَعْدَ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ عِنْدَ هِمَّتِكَ إِذَا هَمَمْتَ وَعِنْدَ كُلِّ

حَرَكَة تكون مِنْكَ وكل سُكُون أن تستمع من الله وتعقل عنه فَإِنْ فِي هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْنَا
 تَبْيَان كل شَيْءٍ وَعِلْم كل شَيْءٍ
 فَعَلَيْكَ بِتَدْبِيرِهِ وَتَأْمَلِهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَعْمَلْ نَفْسَكَ فِي فَهْمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ أَوَّلًا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى
 {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
 فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ}
 فَلَا تَغْفُلْ عَنْ مِرَاقَبَةِ مَنْ لَا يَغْرِبُ عَنْهُ أَصْغَرُ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَلَا تَشْبَعُ وَلَا تَمَلْ مِنْهَا فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفُلُ
 عَنْهَا يَنْظُرُ إِلَيْكَ وَيَطْلُعُ عَلَى ضَمِيرِكَ وَيَحْصِي عَلَيْكَ مِثْقَالَ الذَّرِّ وَمَوَازِينَ الْحَزْدَلِ حَتَّى يَجْزِيكَ بِذَلِكَ
 أَوَّلًا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا
 عَظِيمًا}
 كَمَالُ الْمِرَاقَبَةِ

وَاعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّهُ لَا يَكَادُ يَحْسِنُ الشَّيْءَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَبْلَهُ وَشَيْءٍ بَعْدَهُ
 فَأَمَّا مَا تَحْسِنُ بِهِ الْمِرَاقَبَةَ قَبْلُهَا فَالْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ وَلُزُومُ طَاعَتِهِ بِالْمِرَاقَبَةِ لَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ
 وَأَمَّا مَا يَحْسِنُ بِهِ الْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ الْإِنْقِطَاعِ فَأَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ

التَّوْبَةُ وَإِثَارُ مَا يَحِبُّ اللَّهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ وَأَنْ تَكُونَ بِهِ أَنْسَ مِنْكَ بِخَلْقِهِ وَلَا تَفْرَحَ بِمَا زَادَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا
 تَحْزَنَ عَلَى مَا نَقَصَكَ مِنْهَا وَهِيَ دَرَجَةُ أَهْلِ الْوَرَعِ وَالْقَنُوعِ
 وَالَّذِي يَقْوِيكَ عَلَى ذَلِكَ التَّصَدِيقُ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالثِّقَةُ بِضَمَانِهِ وَالتَّرَجِّي بِمَا يَكْفِيكَ مِنْهَا وَلُزُومُ
 سُرْعَةِ الْإِنْتِقَالِ عَنِ الدُّنْيَا
 وَأَمَّا إِثَارُ مَا يَحِبُّ اللَّهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ فَسُبْحَانَهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقَّ وَلَا أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَهُوَ إِثَارُ
 مَحَبَّتِهِ عَلَى هَوَاكَ وَهُوَ فَرَضُ عَلَى الْمُدَبِّرِينَ عَنْهُ وَالْإِبَاقُ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ وَيَعَامِلُوهُ وَكَيْفَ لَا يُوَثِّرُهُ مِنْ
 تَعَوُّدِ الْقُرْبِ مِنْهُ وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ
 أَمَّا الْأَنْسَ بِهِ فَهُوَ أَنْ تَكُونَ بِهِ أَشَدَّ أَنْسًا مِنْكَ بِخَلْقِهِ فَمَنْ عَرَفَهُ وَعَرَفَ لَطْفَهُ وَكَثْرَةَ أَيْدِيهِ وَحُكْمَهُ
 وَبِرَّهُ وَعَطْفَهُ وَتَفَضُّلَهُ أَنْسَ بِهِ
 وَكَيْفَ يَر_اقِبُ الْعَبْدُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ وَكَيْفَ يَنْقَطِعُ إِلَى مَنْ لَا يَتَّقِي بِهِ وَلَا يَأْنِسُ بِهِ

وَأَمَّا الَّذِي يَحْسِنُ الشَّيْءَ بَعْدَهُ فَالشُّكْرُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ لَوْ عَقَلْتَ مَا تَقَرَّرْتُ وَكَنتَ مَرِيدًا لِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ
لَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْحَزُونِ وَالْحَافِئِينَ أَلَا يَقْبَلُكَ وَأَنْ يَسْتَقْدِرَ إِرَادَتَكَ وَسِيرَتَكَ وَأَنْ يَرُدَّكَ عَنْ بَابِهِ وَأَنْ
تَقْدُمَ عَلَيْهِ وَأَنْتَ كَذَلِكَ
الْإِعْتِبَارُ

وَاسْتَعْنِ فِي أَمْرِكَ كُلِّهِ بِالْإِعْتِبَارِ فَإِنَّ الْأَمْرَ لَا يَزَالُ مَسْتُورًا مِنْكَ أَوْ غَائِبًا عَنْكَ فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ نَظَرَ
الْمُعْتَبِرِ كَادَ أَنْ يَقُومَ لَكَ الْإِعْتِبَارُ مَقَامَ الْمَخْبِرِ الْمَعِينِ لَمَّا قَدْ غَابَ عَنْكَ وَمَقَامَ الْكَاشِفِ لَكَ عَنْ
الْمَسْتُورِ عَنْكَ حَتَّى تَنْظُرَ إِلَى زِينِ الْأُمُورِ وَشِينِهَا وَحُسْنِهَا وَقُبُحِهَا وَتَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ صَارَ الْحُسْنُ حَسَنًا
وَالْقُبُحُ قُبُحًا فَتَتَّبِعَ مِنْ ذَلِكَ مَا فِيهِ نَجَاتُكَ وَتَحْتَنِبَ مَا فِيهِ هَلَكَتُكَ وَتَعْرِفَ النَّاسَ بِالْإِعْتِبَارِ عَلَى
مَنَازِلِهِمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَلَحْنِ الْفِعْلِ وَتَعْرِفَهُمْ وَتَعْرِفَ مَنَازِلَهُمْ وَمَذَاهِبَهُمْ بِنُورِ الْإِعْتِبَارِ وَمَوَاهِبِ الْإِلَهَامِ إِنْ
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
الْاِقْتِصَادُ وَالْحَزْمُ

وَعَلَيْكَ يَا أَخِي بِالْاِقْتِصَادِ وَالْحَزْمِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا فَإِنَّ الْاِقْتِصَادَ أَرْجَا

(1/169)

لِلثَبَاتِ وَأَسْلَمَ مِنَ الْآفَاتِ وَالْحَزْمُ يَنْفَعُ أَهْلَهُ عِنْدَ الشَّدَّةِ وَلَا يَضُرُّهُمْ عِنْدَ الرِّخَاءِ
فَاسْتَكْثِرْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ مَا قَدَرْتَ فَلَيْسَتْ الْمَعْرِفَةُ كَالْعَمَلِ لِلْعَمَلِ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَلَيْسَ لِلْمَعْرِفَةِ حَدٌّ
تَنْتَهِي إِلَيْهِ لِأَنَّكَ تُرِيدُ بِالْمَعْرِفَةِ اسْتِكْمَالَ أَمْرِ اللَّهِ وَإِقَامَةَ حَقِّهِ وَلَا يَبْلُغُ ذَلِكَ أَحَدٌ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
أَجَلٌ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَبْلُغَ الْآدَمِيُّونَ كُنْهَ حَقِّهِ
غَيْرَ أَنَّهُمْ يَتَبَايَنُونَ فِيهِ بِزِيَادَةِ الْمَعْرِفَةِ وَنَقْصَانِهَا مَعَ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِنْسِ وَالرُّوحِ وَالْفَرْحِ وَالرَّاحَةِ لَزِيَادَتِهَا نِعْمَةٌ
مِنَ اللَّهِ وَنَقْصَانِهَا عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ بِذَنْبٍ أَوْ تَضْيِيعِ شُكْرِ
إِحْذَرِ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ وَارْغَبْ فِي صَغَائِرِ الْخَيْرِ

وَإِخْذَرْ مَا يَكْرَهُ اللَّهُ مِنْ عَمَلِكَ وَنَيْتِكَ وَسِرِّكَ وَعِلَانِيَتِكَ فِي الصَّغِيرِ كَمَا تَحْذَرُهُ فِي الْكَبِيرِ وَإِنْ كُلُّ
شَيْءٍ يَفْسِدُ عَلَيْكَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ قَدِمَتْهُ لِلَّهِ يَفْسِدُ عَلَيْكَ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَالْدُّنْيَا كُلُّهَا مِثْلُ مَا أَفْسَدَ
عَلَيْكَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فَسَادًا سَوَاءٌ لَا فَضْلَ بَيْنَهُمَا
ثُمَّ هَكَذَا فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ يَأْتِي الْفُسَادُ عَلَى كَثَرَتِهَا كَمَا يَأْتِي عَلَى قَلَّتِهَا سَوَاءٌ وَارْغَبْ فِي الصَّغِيرِ مِنَ
الْخَيْرِ كَمَا تَرْغَبُ فِي الْكَبِيرِ رَغْبَةً وَاحِدَةً

(1/170)

لأنَّه يقبل القليل من العبد كما يقبل الكثير قبولاً واحداً سواءً وهكذا في سائر الاعمال وكفى يقبل الله الصَّغير من عبده لعبده فوزاً مع ان أعمال بني آدم كلها صغاراً إلا ما قبل الله منها فإذا قبل منها شيئاً صار عظيماً وإن كان قبل ذلك صغيراً وأعلم ان صغارها أسلم من كبارها في الرياء والاعجاب والامتنان فانتبه لذلك ولا تغفل عنه وأعلم ان لك في عمالك إرادة وأملاً فانظر إرادتك في أعمالك كلها كإرادة أهل الشُّكر والرِّضا وأملك فيه كأول المسرفين على انفسهم فليس شيء أحب الى أهل الرِّضا من شيء يرضى الله به ولا شيء أحب الى أهل الشُّكر من شيء يشكرون الله عليه ولا شيء اولى بأهل الاسراف على انفسهم من شيء يرجون به عفو الله وأعلم أيّ لست من قلة العمل اخاف عليك وعلى مثلك ولكن أخاف عليك من قلة المعرفة وضعف الارادة لا أجدني اخاف عليك وعلى مثلك من قلة التَّطوُّع ولست اخاف من الورع ألا تنظر فيه كما ينظر غيرك أو لا تترك شهوات أحلها الله لك تؤثر بها عليك غيرك إلا أيّ أخاف عليك ان تنزع في أمر يكرهه الله ولا ينفعك قد خفي عن النَّاس وهو عند الله ظاهر فيفسد عليك جميع ما أردت أو ترى ان لك فضلاً على غيرك فيحبط ذلك جميع ما كنت فيه

(1/171)

وأخاف عليك ألا تقوم بصيانتها كما قُمت بعلمها فيهدم ذلك جميع ما كنت فيه وما بنيت عليه أو لا تؤدّي ما يجب عليك من الشُّكر فيها فيلزمك من الدُّم في كفران النعم أكثر ممَّا رجوت من الحمد فيها أو تكون تدل على الله عز وجل بعملك فيسقطك ذلك من عين الله أو تمن به على أحد أو تؤذي بسببه احدا فقد علمت ما قال الله عز وجل في ذلك {يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء النَّاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تُراب فأصابه وابل فتركه صلداً} ورُبما يعزم على العلم الذي أرادَهُ فلا يجده كما وجده يغير عزم عزم عليه كمال العزم

قلت فما بال الرجل يأتيه الامر ممَّا يجب من غير طلب ولا عزم عليه حتَّى رُبما أخاف من عزمه ان يكون عليه أكثر ممَّا يكون له قال هذا من الذي قلنا لا يصلح الشيء إلا بشيء قبله وشيء بعده فإذا لم يكن عزم بمعرفة كان عاقبته نحو الذي ذكرت

(1/172)

ومعرفته أن يكون بدؤه بالافتقار الى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَا يكون كالتألي على الله والتوكل أن ينفرد بإشعار قلبه في تفويض المقدرَة الى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى والتبري من الحول والقُوَّة أولا تسمع الى قَوْلِهِ تَعَالَى {وَلَا تَقُولْنَ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} فَهَذَا زِيَادَة على التَّوَكُّلِ أَمْرُ أَمْرِكَ اللَّهُ بِهِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} والمشورة من الحاجة لَا من الغنى أَمْرُ اللَّهِ نبيه صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْتَعِينِ بِمَنْ لَيْسَ هُوَ مثله وَأَنْ تبقى سنته سنة لمن هُوَ بعده

فكيف بمن هُوَ مثلي ومثلك إِذَا سَهَا عَنْ اللَّهِ فِيمَا لَا يَسَعُهُ إِلَّا التضرع اليه أولا تسمع الى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قصَّةِ يَعْقُوبَ {إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} فَكَانَ عَاقِبَةُ يَعْقُوبَ تَمَامَ مَا أَرَادَ

وَقَوْلُ يُوسُفَ {قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَبُ إِلَيْهِنَّ} وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ {وَتَمَّ لَهُ أَمْرُهُ حِينَ أَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنَ الْقُدْرَةِ} واقر بالافتقار وفوض الامر الى ربه

(1/173)

وَقَوْلُ الْآخِرِ {لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} فَسَأَلُوهُ وَلَمْ يَفْرَضُوا إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ لَا قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ وَلَا بَعْدَهَا قَالَ {فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُذُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} وَلَمْ يَتِمَّ لَهُمْ أَمْرُهُمْ وَقَوْلُ الْآخِرِ أَيْضًا {لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} فَلَمَّا آتَاهَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا

ثُمَّ انْظُرْ إِلَى قَوْلِ آدَمَ حِينَ تَقَدَّمَ عَلَى حَمْلِ الْأَمَانَةِ بِغَيْرِ افْتِقَارٍ وَلَا اسْتِكَانَةٍ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرُهُ وَعَبَّرَ بِالْجَهْلِ وَالظُّلْمِ

وماذا يُغْنِي الْعَزْمُ مِنَ الَّذِي لَيْسَ بِيَدِهِ الْأَمْرُ

(1/174)

من فرائد الحِكْمَةِ

قَالَ وَمَنْ لَا يَكُونُ عَالِمًا بِمَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ يُوشِكُ أَنْ لَا يَكُونَ عَالِمًا بِمَا وَرَدَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ اعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّهُ مِنْ اطَاعِ اللَّهِ وَلَمْ يَخَفْ فَقَدْ أَطَاعَهُ فِي الْعَمَلِ وَعَصَاهُ فِي تَرْكِ الْخَوْفِ فَكَيْفَ مِنْ يَعْصِيهِ وَلَا يَخَافُهُ

وَقَالَ لَوْ أَنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا قَوْلَكَ غَيْرَ أَنَّكَ لَمْ تَرُدَّ اللَّهَ بِهِ قَطْعَ بكَ وَلَوْ تَرَكْتَ قَوْلَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ تَرُدَّ اللَّهَ بِهِ قَطْعَ بكَ

وَقَالَ لَوْ عَقَلْتَ عَنْ اللَّهِ أَمْرَيْنِ لَنَظَرْتَ إِلَيْهِ بِعَظِيمِ الشُّكْرِ لَهُ حَيْثُ لَمْ يَجْعَلْ دَعَاءَهُ إِلَى الْجَنَّةِ فِي تَرْكِ مَا

تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَجْعَلْ دَعَاءَهُ إِلَى النَّارِ فِي حَاجَتِكَ مِنْهَا
وَقَالَ اعْرِفِ النِّعَمَةَ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا فَإِنَّ الْبَهِيمَةَ لَا تَجِدُ رَائِحَةَ الْمَسْكِ وَإِنْ حَشَى بِهِ مِنْخَرَاهَا
وَقَالَ كُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الْحَقِّ يَجِبُكَ الْحَقُّ

(1/175)

وَقَالَ اجْعَلْ نَفْسَكَ تَابِعًا فِي طَرِيقِ الْهُدَى وَلَا تَجْعَلْهَا قَائِدًا إِلَى طَرِيقِ الْهَوَى
وَقَالَ احْذَرِ شَهْوَةَ لَا تَبْقَى وَنَدَامَةً لَا تَفْنَى
وَقَالَ أَنْيْسَكَ الْيَوْمَ هُوَ أَنْيْسَكَ غَدًا فِي قَبْرِكَ وَعَمَلُكَ الْيَوْمَ هُوَ عَمَلُكَ غَدًا فَانْظُرْ مِنْ أَنْيْسَكَ وَمَا
عَمَلُكَ
وَقَالَ احْفَظْ اللَّهَ عِنْدَ هَوَاكَ يَحْفَظُكَ عِنْدَ لِقَاكَ
تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَمَلٍ ظَاهِرِهِ طَاعَةٌ وَبَاطِنِهِ مَعْصِيَةٌ
وَقَالَ مَا تَرَكَ الْحَقُّ لِأَهْلِهِ سُرُورًا وَلَا أَبْقَى الْبَاطِلُ لِأَهْلِهِ مِنَ الْآخِرَةِ نَصِيبًا
وَقَالَ مِنْ عِلْمٍ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ هَانَ عَلَيْهِ مَا فِي يَدَيْهِ
إِذَا اكْمَلْتَ مَعْرِفَةَ الرَّجُلِ بِالْدُّنْيَا تَعَجَّبُ مِنْ أَبْنَائِهَا وَإِذَا عَمِيَ عَنْ مَعْرِفَةِ الْآخِرَةِ تَعَجَّبُ مِنْ أَبْنَائِهَا
وَقَالَ مَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا قَاطِعَهَا وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا انْقَطَعَ إِلَيْهَا وَمَنْ عَرَفَ الْآخِرَةَ انْقَطَعَ إِلَيْهَا وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا
قَاطِعَهَا
وَقَالَ أَقِلِ الشَّهَوَاتِ لَكَ نَفْعًا فِي الدُّنْيَا أَضْرَهَا عَلَيْكَ فِي الْآخِرَةِ وَأَقِلِ شَهَوَاتِ الْآخِرَةِ مُؤْنَةً عَلَيْكَ فِي
الدُّنْيَا أَرْدَهَا عَلَيْكَ فِي الْآخِرَةِ

(1/176)

وَقَالَ مَا أَيْسَرَ الْأَمْرَ عَلَى مَنْ أَحْتَسَبَ بِنَفْسِهِ عَنْ مُنَافَسَةِ أَهْلِ الْعِزِّ فِي عِزِّهِمْ فَقَدْ هَدَى إِلَى الْمَرْتَقَى
الَّذِي ارْتَقَى مِنْهُ الْحُبُّونَ لِقَرَبِ اللَّهِ عِزُّوهُ
وَقَالَ اخْتِيارُ الْعَبْدِ لِلْعُبُودِيَّةِ شِفَاءٌ وَبَرْدٌ عَلَى الْفُؤَادِ وَجَلَاءٌ لِلْبَصَرِ
وَقَالَ طَلِبُ الْعَبْدِ لِلْحُرِّيَّةِ بَلَاءٌ يَعِشِي مِنْهُ الْبَصَرُ
وَقَالَ الْعَامِلُ النَّاطِرُ عَمَلَهُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالْعَامِلُ السَّامِعُ غَيْرِ النَّاطِرِ عَمَلَهُ عَلَى الْاسْتِثْقَالِ فَاعْمَلْ عَمَلًا
مِنْ سَمْعٍ فَفَهِمَ وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ وَلَا تَعْمَلْ عَمَلًا مِنْ سَمْعٍ وَلَمْ يَنْظُرْ
وَقَالَ رَبُّ نِعْمَةٍ تَصِيرُ عُقُوبَةٌ وَنِقْمَةٌ وَرَبُّ عُقُوبَةٍ تَصِيرُ نِعْمَةٌ
وَقَالَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَحِبَّ شَيْئًا فَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فَإِنَّ الذِّكْرَ وَالنِّسْيَانَ لَا يَجْتَمِعَانِ
وَقَالَ الْحَسَنَةُ الصَّادِقَةُ الْمَشْكُورَةُ يُثَابَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا فِي الْآخِرَةِ وَيُزَادُ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا يُزَادُ لِلشُّكْرِ
وَيُنَابِئُ لِلصَّدَقِ

(1/177)

وَقَالَ مِنْ أَنْفَعِ الْعِبَادَةِ أَنْ يُعَامَلَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ بِاسْتِصْغَارِ الدُّنْيَا عِنْدَهَا
وَقَالَ وَمَنْ أَحْسَنَ الْعِبَادَةِ أَنْ يَمْتَلِئَ قَلْبُ الْعَبْدِ مِنْ حُبِّ الطَّاعَةِ فَإِذَا فَاضَ عَمِلَتِ الْجَوَارِحُ عَلَى قَدَرِ
مَا رَأَتْ مِنَ الْقَلْبِ فَرُبَّمَا كَانَتْ الْجَوَارِحُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْقَلْبُ فِي الْبَطَالَةِ
قُلْتُ وَكَيْفَ عِبَادَةُ الْقَلْبِ دُونَ الْجَوَارِحِ وَكَيْفَ يَفِيضُ الْقَلْبُ بِالْعِبَادَةِ إِلَى الْجَوَارِحِ
قَالَ أَنْ يَصِيرَ وَعَاءٌ لِلْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالْإِفْتِقَارِ وَالْخَوْفِ وَالنَّدَامَةِ وَالتَّوَاضُّعِ وَالْإِضْطِرَارِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَالنَّصِيحَةِ لَهُ وَحُبِّ مَا يَحِبُّ اللَّهُ وَيُبْغِضُ مَا يَبْغِضُ اللَّهُ
فَإِذَا عَامَلَ اللَّهُ عَلَى هَذَا بِقَلْبِهِ هَاجَتْ الْجَوَارِحُ بِمِثْلِ مَا رَأَتْ مِنَ الْقَلْبِ فَانْبَعَثَ عَلَى الطَّاعَةِ وَإِنَّمَا
يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الْقَلْبِ إِذَا خَالَطَ سَوِيدَاءَهُ مَا تَأْتِي بِهِ الْقِيَامَةُ
وَالْبَابُ الْآخِرُ أَنْ يَمْتَلِئَ قَلْبُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ نِعَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسُرُورِهِ بِاللَّهِ وَأَنْسَهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَشَوْقِهِ إِلَى
مَحَابِّ اللَّهِ وَحُبِّهِ لِلشُّكْرِ لِلَّهِ وَرَجَائِهِ مَغْفَرَةَ اللَّهِ
فَإِذَا عَامَلَ اللَّهُ بِهَذَا مِنْ قَلْبِهِ اشْتَاقَ إِلَى عِبَادَةِ الْجَوَارِحِ مَعَهُ فَيَكُونُ عَامِلًا وَفِي عَمَلِهِ أَنْسَ وَسُرُورٌ
وَحُلَاوَةٌ

(1/178)

وَقَالَ وَمَنْ أَشْرَفَ الْعِبَادَةِ أَنْ تَرَاقِبَ اللَّهُ بِمَا يَحِبُّ اللَّهُ فَإِذَا فَتَرْتَ عَنْ ذَلِكَ رَاقِبْتَهُ فِيمَا يَكْرَهُ مَلْتَمِسًا
الْعُودَ إِلَى الْحَالَةِ الْأُولَى الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا حَرِيصًا عَلَى ذَلِكَ فَيَحْدِثُ لَكَ حِينَئِذٍ إِلَيْهَا حَنِينٌ شَدِيدٌ فَإِنَّهُ
إِذَا رَأَى كَذَلِكَ تَحَنَّنَ وَتَحَرَّصَ رَدَّ عَلَيْكَ مَا سَلَبَكَ
قَالَ وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا وَفِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْعَامِلِ أَنْ يَعْقِلَ مَا عَلَى الْقَلْبِ وَمَا عَلَى
جَوَارِحِ فَيَبْذُرَ بِمَا عَلَى الْقَلْبِ ثُمَّ بِمَا عَلَى الْجَوَارِحِ فَإِنَّ الْقَلْبَ هُوَ الْأَصْلُ وَالْجَوَارِحُ أَغْصَانٌ وَلَا تَقُومُ
الْأَغْصَانُ إِلَّا بِالْأَصْلِ
قَالَ وَمَنْ أَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ أَنْ تَكُونَ سَجِيَّةَ الْعَبْدِ التَّوَاضُّعُ وَمَنْ أَحْسَنَ الْفِعَالِ الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ
إِلَيْكَ
وَقَالَ اجْتَهِدْ وَلَا تَيَاسَ وَلَا تَقُلْ عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ لَوْلَا دُنُوبِي لَرَجَوْتُ طَرِيقَةَ الصَّالِحِينَ فَيَفْتَرِكُ ذِكْرَ
ذُنُوبِكَ عَنْ الْعَمَلِ فَإِنْ صَاحَبَ الْحَمْلَ الثَّقِيلَ أَوَّلَى أَنْ يَجْتَهِدَ فِي إِسْقَاطِ مَا قَدْ حَمَلَ مِنَ الْمَخْفِ الَّذِي
لَيْسَ عَلَى ظَهْرِهِ شَيْءٌ
وَقَالَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَنْظُرَ اللَّهُ إِلَيْكَ بِالرَّحْمَةِ فَانْظُرْ أَنْتَ إِلَى الصَّالِحِينَ بِالْغَبْطَةِ وَإِلَى الْعَاصِينَ بِالرَّأْفَةِ

(1/179)

وَقَالَ إِذَا وَقَعَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ الْإِهْتِمَامُ بِالنَّفْسِ اشْتَدَّ خَوْفُهُ عَلَيْهَا وَعَظُمَ رَجَاؤُهُ لِلنَّاسِ وَإِذَا خَلَا قَلْبَهُ مِنْ هَمِّ نَفْسِهِ حَسَنَ ظَنَّهُ بِهَا وَعَظُمَ رَجَاؤُهُ لَهَا وَخَافَ عَلَى النَّاسِ
وَقَالَ مَنْ طَالَتْ فِكْرَتُهُ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ أَوْرَثَتْهُ الْحُزْنَ وَالْهَمَّ وَهِيَ تُؤَدِّي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَكُلُّ خَصْلَةٍ مِنْهَا كَافِيَةٌ إِذَا فَكَّرْتَ فِي عِلْمِ اللَّهِ فِيكَ وَإِنْ اسْمُكَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ وَبِمَ يَخْتَمُ لَكَ وَذَكَرْتَ ذُنُوبَكَ
وَقَالَ مَنْ طَالَتْ فِكْرَتُهُ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ أَوْرَثَتْهُ الْخَوْفَ وَالْخَشْيَةَ وَهِيَ تُؤَدِّي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كَافِيَةٌ مِنْ فِكْرِ فِي الْمَوْتِ وَسُرْعَةِ انْقِضَاءِ الْأَجْلِ وَالْمَصِيرِ إِلَى الْقَبْرِ وَالْوُقُوفِ لِلْحِسَابِ وَالنَّارِ الَّتِي لَا صَبْرَ لِأَحَدٍ عَلَيْهَا
وَقَالَ لَا تَنَازَعِ اللَّهَ فِي مَحَبَّتِهِ فَتَكُونَ قَدْ عَامَلْتَهُ بِالْغَلْبَةِ
وَقَالَ لَا تُؤْثِرْ عَلَى اللَّهِ أَحَدًا فَيَكِلَكَ إِلَى مَنْ آثَرْتَهُ عَلَيْهِ
وَقَالَ إِلَى مَتَى تَعِدُ الشَّغْلَ عَوْنًا
وَقَالَ إِنْ لَمْ تَتْرِكْ مَا يَرُدُّكَ أَقْبَلَ عَلَيْكَ مِنْ يَغْوِيكَ
وَقَالَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقْسِمَ صَدَقَةً أَوْ مَعْرُوفًا فِي النَّاسِ أَوْ فِي سِوَاكَ

(1/180)

قَرِيبَ مِنْكَ فَإِنَّمَا تَبْدَأُ أَقْرَبَهُمْ مِنْكَ مَنْزِلًا وَاشْهَدَهُمْ إِلَى صَدَقَتِكَ فَقَرَأَ ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ وَلَمْ تَذْكُرْ بِصَدَقَتِكَ
مَنْ بَعْدَ مِنْكَ أَوْ اسْتَغْنَى عَنْ صَدَقَتِكَ
فَقَرَّبَ يَا أَخِي مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ وَاكْشَفَ لَهُ عَنْ فَقْرِكَ إِلَيْهِ يَنْلِكَ مَعْرُوفَهُ فِي أَوَّلِ مَنْ يَنْالُ فَأَفْهَمَ يَا أَخِي
أَنْ كُنْتَ تَفْهَمُ
وَقَالَ لَوْ كَانَ لَكَ عَبِيدُ أَرَدْتَ عَتَقَ بَعْضُهُمُ الْإِسْنَ كُنْتَ تَبْدَأُ بِأَعْدَلِهِمْ سِيرَةً وَانْصَحَهُمْ لَكَ وَاحْدَهُمْ
وَقَالَ إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتْرِكْ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ لَمْ يَذْكُرْكَ فِيمَنْ يُحِبُّهُ
وَقَالَ أَبْذِلْ اللَّهُ مَا أَغْنَاكَ عَنْهُ يَبْذِلْ لَكَ لَا غِنَى بِكَ عَنْهُ
وَقَالَ مَنْ كَانَ يَحِبُّ الْقُرْبَ مِنَ اللَّهِ فَلْيَتْرِكْ مَا يَبَاعِدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى
وَقَالَ اجْعَلْ بَصْرَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ فَإِنَّ الَّذِي وَرَاءَكَ قَدْ جَزَتْهُ
وَقَالَ إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ مَنْ بَاعَ نَصِيْبَهُ مِنَ الْآخِرَةِ بِنَصِيْبٍ غَيْرِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَعَجِبْتَ مِنْهُ فَبِعَ أَنْتَ نَصِيْبَ
غَيْرِكَ مِنَ الدُّنْيَا بِنَصِيْبِكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَإِنَّ الَّذِي يَبْقَى مِنْكَ إِنَّمَا هُوَ رِزْقُ غَيْرِكَ
وَقَالَ لَا تَطْلُبِ الْحَمْدَ مِمَّنْ يَمُوتُ فَلْتَلْحَقْكَ الْمَذْمَةُ بِمَنْ لَا يَمُوتُ
وَقَالَ أَتَرِكَ خَوْفَ الدُّنْيَا تَأْمِنُ الْآخِرَةَ وَاطْلُبِ أَمْنَ الْآخِرَةِ بِخَوْفِ الدُّنْيَا

(1/181)

وَقَالَ اِذَا عَرَضَتْ لَكَ شَهْوَةٌ فَادْكُرِ الْعَاقِبَةَ فَكَمْ مِنْ شَهْوَةٍ ذَهَبَتْ عَنْكَ لَذَّتْهَا وَبَقِيَتْ عَلَيْكَ حَسْرَتُهَا
وَقَالَ اِنْ الَّذِي يَفْسُدُ عَلَيْكَ الْآخِرَةُ هُوَ الَّذِي لَا تَحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَمَا رَاحَتْكَ اِلَيْهِ
وَقَالَ لَوْ رَأَيْتَ رَجُلًا بَيْنَ جَمَاعَةٍ وَكُلِّ وَاحِدٍ يَكِيدُهُ بِالْوَانِ الْمَكَايِدِ ثُمَّ لَمْ تَرَهُ يَتَضَرَّعُ وَيَسْتَكِينُ وَيَنْقَطِعُ اِلَى
مَنْ يَرْجُو نَجَاتَهُ لَسَفِهْتَ رَأْيَهُ وَعَقْلَهُ فَلَا تَكُونَنَّ اَنْتَ هُوَ
وَقَالَ مَا وَجَدَ أَحَدٌ مِنْ صَاحِبِي رَاحَةَ اطِيبِ رَاحَةِ اطِيبٍ مِنْ رَاحَةِ حَسَنِ الْخَلْقِ
وَقَالَ اِنْ لَكَ فِي خِصَالِ ثَلَاثِ شُغْلًا عَمَّا سِوَاهَا فِي مِرَاقِبَتِكَ رَبِّكَ وَمَحَاسِبَتِكَ نَفْسِكَ وَمَذَاكِرَتِكَ ذَنْبِكَ
وَقَالَ اَصْرَفْ عَنْكَ عَوَارِضَ الشَّهَوَاتِ بِالْحُزْنِ وَالنَّدَامَةِ عَلَى الشَّهَوَاتِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي قَدْ انْقَضَتْ عَنْكَ
لَذَّتْهَا وَبَقِيَتْ عَلَيْكَ تَبَعَاتُهَا وَالْقَاسِيَةُ عَنْ قَلْبِكَ اَلْهُمُ تَصْدِيقُ بَوْعِدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالزَّمُّ قَلْبِكَ الْخَوْفُ حَذَرُ
الْوَعِيدِ لِلَّهِ تَعَالَى وَتَوَاضَعُ لَهُ اِفْتِقَارًا اِلَى رَحْمَتِهِ وَاسْتِصْغَارًا لِنَفْسِكَ عِنْدَ ذِكْرِ عَظَمَتِهِ وَانْفِ عَنكَ التَّزِينِ
لِلنَّاسِ اِيثارًا لِحُبَّتِهِ وَاسْتَوْجِبْ اسْمَ الشُّكْرِ لَهُ عَلَى اِحْسَانِهِ اِلَيْكَ بِالْحُبِّ مِنْكَ لِعِبَادَتِهِ وَاسْتَوْجِبْ اسْمَ
الْخَوْفِ مِنْهُ بِالْكَرَاهَةِ مِنْكَ لِمَعَاصِيهِ وَاسْتَوْجِبْ نِعْمَةَ مَعْرِفَتِهِ بِحُبِّكَ لِمِرَاقِبَتِهِ وَاسْتَوْجِبْ اسْمَ الْحُبِّ لِمِرَاقِبَتِهِ
بِالْاِنْسِ بِهِ دُونَ خَلْقِهِ

(1/182)

وَقَالَ اِنْ لِلنَّاسِ مَنَازِلٌ وَدَرَجَاتٌ فَمَنْ نَظَرَ بَعِيْنِي قَلْبُهُ اَبْصَرَ دَرَجَاتَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ فِي طَرِيقِ الْآخِرَةِ كَمَا
اَبْصَرَ بَعِيْنِي رَأْسُهُ مَنَازِلَ وَدَرَجَاتِ اَهْلِ الدُّنْيَا
وَلَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ مَنَزَلَةً مِنْ مَنَازِلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمَعْرِفَةِ قَلْبِهِ وَلَا بِذِكْرِ لِسَانِهِ وَلَكِنْ بِعَمَلِ اَهْلِهَا وَالْقِيَامِ
بَشُرُوطِهَا وَكَمَا لَا يَنْفَعُ الْفَقِيرَ مَعْرِفَتُهُ بَيْسَارِ الْمُوَسَّرِ وَمَا يَمْلِكُ مِنَ النَّعِيمِ وَالْوَانِ الْاِطْعَمَةِ وَالْاِفْرَشَةِ
وَاللِّبَاسِ كَذَلِكَ لَا تَنْفَعُكَ مَعْرِفَتُكَ بِأَعْمَالِ الصَّالِحِينَ وَانْتَ غَيْرَ عَامِلٍ بِمِثْلِ عَمَلِهِمْ بَلْ هُوَ حُجَّةٌ
عَلَيْكَ وَاللَّهُ نَسْأَلُ التَّوْفِيقَ بِرَحْمَتِهِ

(1/183)

من عُيُونِ الْمَعْرِفَةِ
اختبار النَّفْسِ

يُرْوَى عَنْ حَكِيمٍ اَنَّهُ سُئِلَ عَنْ اِمْتِحَانِ النَّفْسِ فِي الصَّدَقِ حَتَّى يَعْلَمَ الْعَبْدُ اَصَادِقَةً هِيَ اَمْ غَيْرُ صَادِقَةٍ
فَقَالَ

اِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ اَنْ اِحْسَدَ خَاسِدٌ لَهُ وَاَعْدَى عَدُوٌّ لَهُ نَالَ بِعِلْمِهِ ثَنَاءً وَجَاهًا فِي النَّاسِ وَيَكُونُ مَسْتُورًا
عَلَى النَّاسِ عَمَلُهُ وَيَلْزَمُهُ هُوَ بِعَمَلِهِ الْخَالِصِ رِيَاءٌ عِنْدَ النَّاسِ وَسُقُوطٌ مَنَزَلَتُهُ عِنْدَهُمْ فَإِنْ سَخَتْ نَفْسُهُ
بِذَلِكَ وَاحْبَتِ اِنْفَاذَ الْعَمَلِ فَهُوَ عَلَامَةُ الصَّدَقِ حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ مِنْ ذِمِّ النَّاسِ لَهُ وَاِقَامَةُ جَاهٍ حَاسِدِهِ

وَعُدَّوهُ مَا يَعْلَمُ بِطُلَّانِهِ
فَإِنْ لَمْ تَحْدِثِ النَّفْسُ عِنْدَ ذَلِكَ خَوَاطِرَ النَّدَامَةِ وَمَضَتْ عَلَى مُحِبَّتِهَا لِلْعَمَلِ فَبَارَكَ اللَّهُ فِيهَا وَهُوَ وَاللَّهُ
الْصَّدِّقُ بِعَيْنِهِ وَهُوَ عَامِلٌ لِلَّهِ حَقًّا وَعَمَلُهُ لَمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ مُخْلِصًا
كَيْفَ يَكُونُ شُكْرُ النِّعَمِ

قُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ النَّاسِ شُكْرَ النِّعْمَةِ مَعْرِفَتِهَا
قَالَ شُكْرُهَا مَعْرِفَتُهَا عَلَى قَدَرِ مَوْقِعِهَا مِنْ قَلْبِهِ بِتَعْظِيمِهَا وَتَعْظِيمِ

(1/184)

إِحْسَانِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِهَا وَلَا يَكُونُ مُعْظَمًا لَهَا حَتَّى يَكُونَ رَاغِبًا فِيهَا وَلَا يَكُونُ رَاغِبًا فِيهَا حَتَّى يَعْرِفَ
حَاجَتَهُ إِلَيْهَا وَلَا يَعْقِلَ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا إِلَّا بِتَدْبِيرِ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَسُرْعَةِ الْمَصِيرِ إِلَيْهَا وَشِدَّةِ حَاجَتِهِ إِلَى مَا
يَقْدُمُ عَلَيْهِ
فَعِنْدَ ذَلِكَ تَعْظُمُ النِّعْمَةُ عِنْدَهُ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِهَا وَيَعْرِفُ امْتِنَانَهُ وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِ فِيهَا فَعِنْدَ ذَلِكَ يَشْتَهِي
الرِّيَازَةَ مِنْهَا وَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُ زَادَهُ مِنْهَا
وَفِي الْجُمْلَةِ أَنَّهُ مِنْ رِزْقِ شَيْئَانَا يَرْجُو بِهِ مَرْضَاةَ رَبِّهِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ عَظُمَ فِي عَيْنِهِ وَتَشَوَّقُ الْقُلُوبُ إِلَى
الْمُعْطَى
وَلَا يَكُونُ شَاكِرًا لِنِعْمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا حَتَّى يَكُونَ شَاكِرًا لِنِعْمِ الْآخِرَةِ وَلَا لَمَّا تَحَبَّ نَفْسُهُ حَتَّى يَكُونَ شَاكِرًا
لَمَّا يَحِبُّ اللَّهُ وَلَا يَكُونُ شَاكِرًا لِلنَّاسِ وَلَيْسَ بِشَاكِرٍ لِلَّهِ
الْإِغْتِبَارُ بِمَا قَبْلَ الْوِلَادَةِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ

مِنْ عِلْمِ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا كَمَا كَانَ يَمْلِكُ قَبْلَ أَنْ يُوَلَّدَ وَكَمَا يَمْلِكُ بَعْدَ أَنْ يَمُوتَ فَقَدْ انْزَلَ
نَفْسَهُ مِنْزَلَةَ الضَّعْفِ وَالْفَقْرِ فِي التَّوَاضُّعِ وَالْإِسْكَانَةِ وَمَنْ لَمْ يَنْزِلْ نَفْسَهُ ذَلِكَ الْمَنْزِلَ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ
كَذَلِكَ عَلِمَا يَقِينًا فَقَدْ اسْتَحَقَّ طَرِيقَةَ الْجَاهِلِينَ وَاسْتَوْجَبَ عُقُوبَةَ الْمُسْتَدْرِجِينَ

(1/185)

اسْتَحْيِ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ

وَقَالَ إِذَا حَمَلْتَ وَعَاءً مِنْ أَوْعِيَةِ الشَّرِّ فَإِنَّكَ تَرْتَعِدُ خَوْفًا أَنْ يَبْدُوَ لِلنَّاسِ شَيْءٌ مِمَّا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ فَمَتَى
يَصْلُحُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ هَيْهَاتَ
اذْكُرِ الْمَوْتَ كَالْعَبْدِ السَّوِّءِ الَّذِي لَا يَسْتَحْيِي مِنْ مَوْلَاهُ وَلَا يَرْجِعُ عَنْ مَسَاوِيهِ وَلَا يَعْرِفُ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ
الْأَعْدَادُ الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ وَادْكُرِ الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتَ

وَقَالَ مَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَطْلُعَ النَّاسُ مِنْهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ اللَّهُ وَلَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَطْلُعَ اللَّهُ مِنْهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ

سوءة لمن كَانَ هَكَذَا وَعَجَبًا لَهُ حَيْثُ يَتْرَكَ وَيَضِيعُ الْفُرْصَ وَيَرْكَبُ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا كَرِهَ اللَّهُ ثُمَّ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِمَا لَمْ يَفْرُضْهُ عَلَيْهِ وَيَتَعَاطَى التَّوَافِلَ مِنَ الْحُجِّ وَالْعُمْرَةِ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَدْعُو النَّاسَ بِرِغْمِهِ إِلَى اللَّهِ وَيَأْبِقُ مِنْهُ وَيَأْمُرُ وَلَا يَعْمَلُ وَيَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي

اترى من كَانَ هَكَذَا عرف الله أَوْ يَعْتَدُ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ أَوْ صَدَقَ فِي أَنْ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابًا لِلْمُطِيعِينَ وَعِقَابًا لِلْعَاصِينَ

سوءة لمن كَانَ هَكَذَا

حَقِيقَةُ التَّوَاضُّعِ

قلت اخبرني عَنْ قَوْلِ الْقَائِلِ التَّوَاضُّعُ هُوَ أَنْ تَكُونَ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ فَكُلَّ مَنْ اسْتَقْبَلَكَ رَأَيْتَ أَنْ لَهُ عَلَيْكَ الْفَضْلَ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ يَدْعِي

(1/186)

هَذَا وَيَقْرِبُهُ بِلِسَانِهِ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا صَارَ إِلَى اخْتِمَالِ شُرُوطِهِ وَمَعْنِهِ لَمْ يَتَحَمَّلْهَا إِلَّا بِالْكَرِهِ مِنْ نَفْسِهِ أَيْ كُونَ هَذَا مُتَوَاضِعًا

قَالَ إِذَا كَانَتْ تِلْكَ الشُّرُوطُ مِنَ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ فَلَمْ يَقْبَلْهَا إِلَّا بِالْكَرِهِ مِنْ نَفْسِهِ فَلَمْ يَبْلُغْ هَذَا دَرَجَةَ الْمُتَوَاضِعِينَ

وَأَنْ كَانَتْ شُرُوطًا دُونَ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ مِمَّا لَا يَجْرُجُ الْعَبْدُ تَرْكَ قَبُولِهَا مِنْ أَحَدٍ وَكَانَ طَيِّبًا بِقَبُولِ الْوَاجِبِ مِنْهَا فَهُوَ طَرِيقُ الْمُتَوَاضِعِينَ وَعَلَى مِنْهَا جَهَمُ

اصْلَحْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ

ويروى عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَخِي لَهُ أَوْصِيكَ يَا أَخِي بِاصْلَاحِ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ وَبِإِثَارِ مَحَبَّتِهِ عَلَى هَوَاكَ وَالْإِقْبَالَ عَلَى عَمَلٍ مِنَ إِلَيْهِ مُعَامَلَتِكَ وَقَبْلَهُ حَاجَتِكَ

وَأَعْلَمُ أَنَّ إِيَامَكَ قَلِيلَةً وَنَفْسَكَ وَاحِدَةً فَإِنْ فَنِيَتْ إِيَامُكَ فَلَا رَجْعَةَ لَكَ فِيهَا وَلَا عَوْضَ لَكَ مِنْهَا وَإِنْ عَطَبْتَ نَفْسَكَ فَلَا نَفْسَ لَكَ سِوَاهَا

وَهَلْ تَدْرِي يَا أَخِي مَا إِصْلَاحُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ

إِلَّا يَأْتِيهِ مِنْكَ شَيْءٌ إِلَّا كَانَ فِيهِ لَهُ رِضَى وَلَا يَأْتِيكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا كَانَ لَكَ بِهِ رِضَى فَإِنْ ضَعُفَتْ عَنْ الرِّضَى بِكُلِّ مَا يَأْتِيكَ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ وَامْرِهِ

(1/187)

فَلَا تَضَعْفَن عَنِ الصَّبْرِ فَإِنَّ لَهُ الرِّضَا بِحَالِ عَبْدِهِ مَا دَامَ الْعَبْدُ رَاضِيًا بِحُكْمِهِ
وَلَهُ الرِّضَى بِصَبْرِ عَبْدِهِ عَلَى أَمْرِهِ وَحُكْمِهِ مَا دَامَ الْعَبْدُ صَابِرًا عَلَى ذَلِكَ فَلَهُ فِيهِمَا الرِّضَى جَمِيعًا
وَأَمَّا عَمَلُكَ فَالْوَفَاءُ بِعَهْدِهِ وَالشُّكْرُ عَلَى نِعَمِهِ
وَأَمَّا حَاجَتُكَ فَمَغْفِرَتُهُ وَعَفْوُهُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ وَخَلَقَ الْجَنَّةَ ثَوَابًا لِأَهْلِ طَاعَتِهِ وَرَحْمَتِهِ
وَخَلَقَ النَّارَ عِقَابًا لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ وَسَخَطَهُ فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ
فَتَعَاهَدُ يَا أَخِي أَيَّامَكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ وَجَمِيعِ أَحْوَالِكَ مَا أَنْتَ فِيهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ
وَتَعَاهَدُ ضَمِيرَكَ فَتَقْهَ وَخُلُصَهُ وَسَلَمَهُ حَتَّى يَكُونَ نَقِيًّا مِمَّا تَخَافُ عَلَيْهِ الْعِقَابَ فَأَرْعَا لِمَا تَوَمَّلُ مِنَ الثَّوَابِ
فَإِنَّكَ غَيْرُ غَائِبٍ عَنِ اللَّهِ طَرَفَةَ عَيْنٍ يَرَاكَ وَيَحْصِي عَلَيْكَ مَتَاقِيلَ الدَّرِّ وَمَوَازِينَ الْحَزْدَلِ لِيَجْزِيكَ بِذَلِكَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ
فَلَا يَغَيِّرُ عَنْكَ ذِكْرَهُ فَإِنَّ حَاجَتَكَ إِلَيْهِ إِذْ لَا حَاجَةَ لَهُ إِلَيْكَ
وَأَعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّ أَصْلَ كُلِّ قَوْلٍ الْعَمَلُ وَأَصْلَ كُلِّ عَمَلٍ الْعِلْمُ وَأَصْلُ كُلِّ ذَلِكَ التَّوْفِيقُ مَعَ صِحَّةِ
تَرْكِيبِ الْعَقْلِ وَكَثْرَةِ الْفِكْرِ فَإِنَّ قُدْرَتَ الْإِلَهِ تَكُونُ بِشَيْءٍ أَعْلَمُ مِنْكَ بِاللَّهِ فَافْعَلْ فَإِنَّ الْقَوْلَ وَالْعَمَلُ
وَالْعَمَلُ

(1/188)

وَعَبْرَ ذَلِكَ هُوَ الْمُرَادُ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ أَقْرَبُهُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ أَعْلَمُهُمْ بِهِ
وَقَدْ بَلَّغْنَا إِنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ بِالْمَعْرِفَةِ
وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ذَهَبَ عَمْرٌ بِتِسْعَةِ أَعْشَارِ الْعِلْمِ وَأَمَّا يَعْني بِذَلِكَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ
وَأَعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّ النَّاسَ أَمَّا يَخْلُصُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَيَتَوَاضِعُونَ لِلَّهِ عَلَى قَدْرِ
مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَيَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى نِعَمِهِ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَيَرْجُونَ اللَّهَ وَيَخَافُونَ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ
وَيَحْسِنُونَ الظَّنَّ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَيَصْبِرُونَ عَلَى طَاعَتِهِ وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ وَعَلَى كِتْمَانِ طَاعَتِهِ وَعَلَى
الْمَصَائِبِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهَا أَحْكَامُهُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَيُحِبُّونَ مَا أَحَبَّ وَيُبْغِضُونَ مَا أَبْغَضَ عَلَى قَدْرِ
مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ
فَمَنْ فَاتَتْهُ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ دَخَلَهُ النَّقْصُ فِي جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَا عَلَى حَسَبِ مَا فَاتَتْهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَعَلَى حَسَبِ
مَا رَزَقَ مِنْهَا فَكَذَلِكَ حَظُّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ
فَالْتَمِسْهَا يَا أَخِي مِنْ مَلِيكِهَا التَّمَسُّسَ مِنْ لَا يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُعْطَاهَا فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ
عَلَى قَدْرِ مَا أَحْسَنُوا مِنَ الطَّلَبِ وَوَضَعَ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا
فَإِذَا أَصْبَحَتْ وَارَدَتْ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ فَانْظُرْ كَيْفَ شَكَرَكَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ رَبُّكَ فِي لَيْلَتِكَ وَكَيْفَ
تَوْبَتَكَ مِمَّا يُتَابُ مِنْهُ فَقَدْ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ} وَقَالَ {وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا
الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ}

(1/189)

واذا دخلت في شيء من الخير فأنظر ممن كان بدؤه وعلى من إتمامه وانه لو قيل لك من احب اليك ان تعمل له لقلت الله فليحقق ضمير قلبك ما عبر واقر به لسانك
 وأعلم يا أخي ان اهل الدنيا والآخرة بين سرور وهموم
 فأهل سرور الآخرة اهل الجنة وإن افضل سرورهم النظر إلى الله وأن افضل سرور المؤمنين في الدنيا سروره بربه وبأنه عبده وتصديق ذلك انه بمراقبته ومناجاته ويكمل ما يعمل له وعلامة انسه بعمله وجود حلاوة العمل له وشدة الحب لخدمته
 ومحال ان يستأنس العامل بعمله وهو غير مستأنس بمن يعمل له أو غير خائف منه
 وأعلم يا أخي لو ان الذي تطلب وتعالجه من نفسك من الطاعة والاستقامة لله كنت تعالجه من جميع انفس ولد آدم لكان في الله قليلا فكيف وهي نفيسة واحدة في ايام قليلة
 فالزم يا أخي المحافظة والمداومة على التعاهد في المراقبة فلو كانت الدنيا كلها لك فبذلتها ونفسك معها شكرا لما انعم عليك من معرفة وانه ربك وانت عبده وانه هو امرك بعبوديته ونهاك عن عبودية غيره لكان ذلك كله قليلا حقيرا في جنب نعمته عليك في ذلك فلا تضعيها بشغل ما لا حاجة لك فيه فإنه لا غنى بك عن معرفة احسانه إليك كما لا غنى بك عن اساءة فإن العبد بين ذنب ونعمه وبين شكر واستغفار والحمد لله على ما انعم علينا وعلمنا وكان فضل الله علينا عظيما

(1/190)

حقائق التوكل

ويروى عن بعض الحكماء انه قال احمد الله اليكم حمد من لا يعرف احسانا الا منه ولا يعرف معبودا غيره واسأله توكل المنقطعين بصدق الانقطاع اليه
 اما بعد
 فإن الله تعالى خص اهل ولايته بغبطة الانقطاع اليه ليعرفهم تواتر نعمه ودوام احسانه وفضله
 فأنصرفت هموم الدنيا من قلوبهم وعظم شغل الآخرة في صدورهم لما سكنها من هيبة ربهم فالزموا قلوبهم ذل العبودية وطرحوا انفسهم في محجة التوكل على الله
 وأعلم يا أخي انك لا تكون متوكلا على الله الا بقطع كل مؤمل دون الله
 وكيف لا تسخو نفسك بقطع كل علاقة من قلبك وتفرغ قلبك للاقبال على الله وصدق التوكل عليه والله حسب من توكل عليه
 والمتوكل الصادق في توكله لا يجد قلبه يخضع لمخلوق لأن قلبه مملوء بالثقة بضمان الله
 والمتوكل الصادق في توكله القليل من عطايا الله عظيم عنده عند صغر

(1/191)

قدره لمعرفة عظيم قدر الله فهو ساكن الى روح اليقين وهي المنزلة التي يغطيه بها اهل الحرص على الدنيا
فمن سكن قلبه الى انه ليس نعمة في السماء والارض الا وهي الله استراح قلبه من عذاب الحرص اما سمعته يقول {هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض} وقال {الا له الخلق والا امر تبارك الله رب العالمين}
فاذا الزمت الثقة قلبك فإتما انت ناظر الى الله لان الملك لله دون خلقه وبقدر تركك الثقة يعظم حرصك على الدنيا
فخالف حرصك على الدنيا بالقنوع بما قسم لك فإنك تسرع في عداوة الحرص على الدنيا لان الحرص لا يعطي ولا يمنع والمتوكل على الله استغنى بالمعطي المانع عمن ليس بمانع ولا معط فهو غني بالله عمن سواه فقير الى الله قد سكن قلبه عن الاضطراب فليس لمخلوق في قلبه خطر فمن وثق بغير الله لا يغنيه فمن وثق بغير الله لا يغنيه والمتوكل لزم التقوى فجعل الله له مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب ولم يقل من حيث يحتسب وقال ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدرا
فالمتوكل توكل على الله في حاجاته كلها من امور آخرته ودنياه

(1/192)

وقطع رجاءه ممن سواه ولم ير نفسه موضعاً لاختيار نفسه لان الله حسبه ومن كان كذلك فقد سكن الى روح اليقين
وهذه المنزلة التي لا منزلة ارفع منها في سكون القلب الى الله والطمأنينة بموعد الله لانه قد جعل الله حسبه من جميع خلقه ومن كان الله حسبه فلا يجد فقد شيء لان الله قد ضمن له وهو بالغ امره واعلم انك والخلق جميعا مضطرون الى الله في كل حال وفي كل حركة وكل سكون لانه الغني وحده ومن وثق بغير الله فقد راي ان ملكا اكبر من ملك الله ومن وثق بالله استغنى به لان الله حسبه وفي الله خلف من جميع الخلق وليس في احد من الخلق خلف من الله لان الله هو الغني وحده فاذا علمت ان الله حسب من توكل عليه فكيف لا تطلب الكفاية بالتوكل على الله عز وجل
ألست تعلم ان الرزاق قد قسم بين عباده معاشهم وقد فضل بعضهم على بعض في الرزق وقد فرغ مما قضى وقدر من ذلك
فكيف تعنى بعد علمك بطلب ما قد فرغ لك من مقداره
الا تسمع الى قول الله عز وجل {وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله} فكيف تطلب كشف الضر من غير الله او تطلب المنفعة من عند غير الله

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِكَ طَلَبُ كَشْفِ الضَّرِّ وَطَلَبُ النَّفْعِ مِنْ عِنْدِهِ وَحْدَهُ إِذْ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ أَمَّا هُوَ بِبَيْدِهِ وَحْدَهُ

وَكَيْفَ تَخَافُ قُوَّةَ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ يُرِيدُهُ اللَّهُ بِكَ وَإِنْ لَمْ يَرِدْهُ بِكَ فَمَنْ يَعْطِيكَ ذَلِكَ أَوْ يَنْبِيئُكَ إِيَّاهُ وَالْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الدُّنْيَا لِأَنَّهُ لَا يَرَاهَا لِنَفْسِهِ خَطَرًا وَلَا يَرَاهَا وَنَفْسِهِ وَجَمِيعَ مَا فِيهَا إِلَّا اللَّهُ وَيَسْتَوِي عِنْدَهُ رُكُوبُ الْبَحْرِ وَالْمَشْيُ فِي الْبَرِّ وَالْأَنْسُ وَالْوَحْشِيَّةُ وَالْعَمَلُ وَالْجُلُوسُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَوَّلًا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} فَاَلْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ أَكْتَفَى بِعِلْمِهِ بِاللَّهِ عَنِ الْإِسْتِعَاذِ بِغَيْرِهِ لِأَنَّهُ عِلْمُ أَنَّ الَّذِي يُوصِلُ إِلَيْهِ الْمَنَافِعَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

وأيضا إذا سكن قلبك إلى الله لم تخف غيره لأن الله حسب من توكل عليه ومن علامة المتوكل أنه يؤثر الصدق حيث يضره على الكذب حيث ينفعه لأنه لم يصح لمن توكل عليه أن يخاف غيره

وَكَذَلِكَ إِذَا أُمِرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهِيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ لِأَنَّ رَجَاؤَهُ مِنَ اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِ مِنْ تَوَعُّدِ الْمَخْلُوقِينَ لِأَنَّ الْمُتَوَكِّلَ عَلَى اللَّهِ أَخْرَجَ مِنْ قَلْبِهِ كُلَّ مَخَوْفٍ وَمَحْذُورٍ وَمَحْزُونٍ دُونَ اللَّهِ حَتَّى اتَّصَلَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ بِاللَّهِ

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَعَاوَنَ أَمَّا تَحْضُرُ عِنْدَ اخْرَاجِ الْعَالَمِ مِنْ قَلْبِكَ فَتَنْحَاشُ عِنْدَ ذَلِكَ

إِلَى مَسَالِكِ الْعِرِّ وَالْغَى بِاللَّهِ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا مَانِعَ وَلَا مُعْطِيَ وَلَا ضَارَّ وَلَا نَافِعَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ وَلَا تَرْغَبُ عَنِ اللَّهِ بِجَهْلِكَ فَتَخْضَعُ لِمَنْ دُونَهُ عِنْدَ تَخْوِيفِ الشَّيْطَانِ فَيَسْتَوِي عَلَيْكَ عِنْدَ ذَلِكَ أَوَّلًا تَسْمَعُ قَوْلَهُ {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا} فَمَا يَضُرُّكَ مِنْ مَوَاعِيدِ الشَّيْطَانِ مَعَ ضَمَانِ الرَّحْمَنِ وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَا تَكُونُ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى تَسْلُكَ مِنْهَاجَ الْمُضِيِّ إِلَيْهِ عَلَى السَّكُونِ وَالْإِطْمِئْنَانِ إِلَى اللَّهِ وَحَتَّى تَعْبُدَ اللَّهَ رَاضِيًا بِمَا صِيرَكَ إِلَيْهِ لِأَنَّكَ لَا تَعْرِفُ غَيْرَهُ فَأَذَا صَرْتَ إِلَى هَذِهِ الْمُنْزَلَةِ غَلَبَتْ عَلَى قَلْبِكَ عَظَمَةُ اللَّهِ وَجَلَالُهُ وَاحْتَقَرَتْ دَعْوَابُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَفْتَرُونَ لِأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مُقْصَرُونَ عَنْ حَقِّهِ عَلَيْهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَصَّ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ بِمَنَازِلِ السَّلَامَةِ وَحَجَبَ عَنْهُمْ كُلَّ نَدَامَةٍ فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى اللَّهِ فِيمَا يَأْمَلُونَ

قَدْ حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَمَّا سِوَاهُ لَمَّا يَرْجُونَ مِنْ إِحْسَانِهِ وَاسْتَغْنَوْا بِذِكْرِهِ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَا تَكُونُ مُتَوَكِّلًا حَتَّى تَصِفُو مِنْ كُلِّ مَلِكٍ لِنَفْسِكَ مَعَ مَلِكٍ

الدُّنْيَا وَحَتَّى لَا تَفْقَ الْإِلَهَ فِي اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَحَتَّى تَرَى مُؤْنَتَكَ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ فَلَا يَذْهَبَنَّ بِكَ
الطَّمَعُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ
الْأَتَى أَنَّ الَّذِي طَمَعْتَ فِيهِمَا فِي يَدَيْهِ أَلَيْسَ هُوَ فِي مَلِكِ اللَّهِ
هَلْ فِي السَّمَاءِ حَاجَزٌ يَحْجُزُكَ عَنِ اللَّهِ
فَاعْلَمْ أَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَفْرُضَ رِزْقَكَ كَمَا لَا تَقْدِرُ أَنْ تَفْرُضَ الْمَوْتَ أَمَّا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ {الَّذِي
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}
فَاسْكُنْ يَا أَخِي إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي رِزْقِهِ كَمَا تَسْكُنُ إِلَى أَنَّكَ مَيِّتٌ وَاقْطَعْ الْإِشْتِغَالَ بِذِكْرِ
الْأَسْبَابِ مِنْ قَلْبِكَ
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُكَ لِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ وَكُلَّ سَبَبٍ فَهُوَ ثَابِتٌ لَا تَعْلَمُ مَتَى يَأْتِيكَ رِزْقُكَ كَمَا لَا تَعْلَمُ
مَتَى يَأْتِيكَ الْمَوْتُ
الْأَتَى أَنَّ اللَّهَ وَعَدَكَ أَنَّ يَرْزُقَكَ وَغَيْبَ رِزْقَكَ عَنْكَ بِالْقَضَاءِ وَلَهُ وَقْتُ يَنْزِلُ فِيهِ فَلَوْ احْتَلَّتْ بِكُلِّ
حِيلَةٍ أَنْ يَأْتِيكَ قَبْلَ وَقْتِهِ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَنْزِلَ فِي وَقْتِهِ
أَمَّا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ
مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ}

وَاعْلَمْ أَنَّ الْوَاقِعَ بِاللَّهِ نَفَى عَنْ قَلْبِهِ التُّهْمَةُ لِلَّهِ وَأَنَّ كُنْتَ فِي ظِلِّ سَبَبٍ فَلَا يَمِيلَنَّ قَلْبُكَ إِلَى السَّبَبِ
وَلَكِنَّ قَلْبَكَ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَهْرْمَانَ لَا يَنْفَقُ إِلَّا بِإِذْنِ السَّيِّدِ فَاعْقِدْ قَلْبَكَ لِسَيِّدِكَ لِأَنَّهُ أَنْ اعْطَاكَ لَمْ يَقْدِرْ أَهْلُ الْأَرْضِ
أَنْ يَمْنَعُوكَ وَأَنْ مَنَعَكَ لَمْ يَقْدِرْ أَهْلُ الْأَرْضِ أَنْ يَعْطُوكَ لِأَنَّ سُلْطَانَهُ عَظِيمٌ وَبِتَوَكُّلِكَ عَلَيْهِ يَكْفِيكَ
فَالْمَتَوَكِّلُ سَاكِنُ الْقَلْبِ إِلَى الْمَضْمُونِ فَمَنْ قَطَعَ تَعْلُقَ الْقَلْبِ بِالْأَسْبَابِ لَمْ يَرِ شَيْئًا إِلَّا اللَّهُ لِأَنَّ قَدْرَ اللَّهِ
جَارٌ عَلَى الْمَتَوَكِّلِ وَغَيْرِهِ إِلَّا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}
وَقَدْ عَلِمَ الْمَتَوَكِّلُ عِلْمًا يَقِينًا وَسَكَنَ قَلْبَهُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ مَا قَسَمَ لَهُ وَقَدَّرَ لَوْ كَانَ فِي مَهَبِ الرِّيحِ لِأَدْرَكَهُ
وَأَنَّ مَا لَمْ يَقْسَمْ لَهُ وَلَمْ يَقْدَرْ لَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَجْهَدَ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَوْصِلُوا إِلَيْهِ مِثْلَ ذَرَّةٍ
أَوْ خَرْدَلَةٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ وَقَدْ قَالَ {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ} وَقَالَ
{وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فَلَمْ يَحِقْ لَهُمْ إِيمَانًا إِلَّا بِتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ
وَقَالُوا {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} وَقَالُوا {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا}

(1/197)

فالتوكل مُحْضُ الْإِيمَانِ لِأَنَّهُ فَرِيضَةٌ عَلَى الْعِبَادِ وَلَا يَكُونُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِتَوَكُّلٍ وَالتَّوَكُّلُ يَزِيدُ وَيُنْقُصُ كَمَا أَنَّ
الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيُنْقُصُ وَالنَّاسُ يَتَفَاضِلُونَ فِي التَّوَكُّلِ وَالْإِيمَانِ عَلَى قَدَرِ الْيَقِينِ

(1/198)